المفاهيم الأخلاقيَّة في الخطاب الأخلاقيِّ عند علماء الحِلَّة (قراءة تحليليَّة)

أ.د. رحيم كريم عليّ الشريفيّ
جامعة بابل/كليَّة العلوم الإسلاميَّة
أ.د. حسين عليّ حسين الفتْليّ
الكليَّة التربويَّة/بابل

Moral Concepts in the Ethical Discourse of Hillah Scholars (An Analytical Study)

Prof. Dr. Rahim Karim Ali Al-Sharifi
University of Babylon/College of Islamic Sciences
Prof. Dr. Hussein Ali Hussein Al-Fatli
Educational College/Babylon

ملخَّص البحث

في هذا البحث سنتحدَّث عن المفاهيم الأخلاقيَّة في الخطاب الأخلاقيّ عند علماء الحِلَّة، هذه المفاهيم التي ترشَّحت في ظلِّ استقراء الخطابات الأخلاقيَّةِ التي وقَفنا عليها في المدوَّنات الأخلاقيَّة عند علماء الحِلَّة.

ويرى الحكماء أنَّ الأعمال التي تصدر عن الإنسان، دائمًا أو غالبًا، إنَّما هي عبارة عن الهيآت والملَكَات المستقرَّة في النفس الإنسانيَّة، ويعبَّر عن هذه الملكات بـ(الخُلْق)، وتنقسم على قسمَين: الخلق الحسن، والخلق السيِّئ أو الرَّديء، كما يعبَّر عن الأوَّل بالفضيلة، وعن الثاني بالرذيلة، وعلى الجملة الأخلاق على قسمَين: محمودة ومذمومة، أمَّا المحمودة، فيجب اتِّصاف كلِّ واحد بها. وأمَّا المذمومة، فيجب الاجتناب عنها، والمحمودة على الإجمال ثمانية، وأصولها أربعة، وهي: الشَّجاعة والحكمة والعفَّة والعدالة، والمذمومة على الإجمال سبعة، وأصولها أربعة، وهي: الدُّنيا والنَّفس والشَّيطان والهوى، والأربعة هذه هي أصل كلِّ ذميمة، ورأسُ كلِّ رذيلة.

ويبدو أنَّ هذه المفاهيم تمثِّل مباحث مهمَّة في خطاباتهم، ولاسيما عند الشيخ ورَّام الحِلِّيّ (٦٠٥هـ) في كتابه (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، والسيِّد عليّ بن طاووس الحِلِّيّ في كتابه (كشف المحجَّة لثمرة المهجة)، أو (محاسبة الملائكة الكرام آخر كلِّ يوم من الذنوب والآثام)، وكذلك ابن فهد الحِلِّيّ (٨٤١هـ) في كتابه (عدَّة الداعي ونجاح الساعي)، إذ تعدُّ مفاهيم راسخة في المدوَّنات الأخلاقيَّة، وهذا ما نلمسه عند الحديث

عن المقارنة بين الخطابَين الأخلاقيَّين بين مدرسة الحِلَّة الأخلاقية، والمدارس الأخلاقيَّة الأخرى، ولاسيما المدرسة الفلسفيَّة.

من هنا جاء هذا البحث من أجل بيان أهمِّ الاستشهادات القرآنيَّة في ضوء هذه المفاهيم الأخلاقيَّة، وقد أرتأينا أن نقسِّم هذه الدراسة على مبحثَين، الأوَّل في الفضائل، الثاني في الرذائل.

Abstract

In this research, we will discuss the ethical concepts in the ethical discourse of the scholars of Hillah.

These concepts emerged through an induction of the ethical discourses we encountered in the ethical codes of the scholars of Hillah. The sages believe that the actions that humans always or often perform are merely the characteristics and dispositions established in the human soul. These dispositions are expressed as "morality," and are divided into two categories: good morality and bad or inferior morality. The former is also expressed as virtue, and the latter as vice. In general, morality is divided into two categories: praiseworthy and blameworthy. As for the praiseworthy, each must be characterized by it, while the blameworthy must be avoided. The praiseworthy, in general, are eight, and their origins are four: courage, wisdom, chastity, and justice. The blameworthy, in general, are seven, and their origins are four: the world, the self, Satan, and desire. These four are the origin of every blameworthy act and the root of every vice.

It seems that these concepts represent important topics in their discourses, especially with Sheikh Warram Al-Hilli (605 A.H) in his book (Tanbih Al-Khawatir wa Nuzhat Al-Nawazir), and Sayyid Ali ibn Tawus Al-Hilli in his book (Kashf Al-Mahjah li-Thamarat Al-Mahja) or the accounting of the honorable angels at the end of each day for sins and transgressions, as well as Ibn Fahd Al-Hilli (841 A.H) in his book (Uddat Al-Da'i wa Najah Al-Sa'i), as they are considered established concepts in ethical codes, and this is what we notice when talking about the comparison between the two ethical discourses between the Hillah ethical school and other ethical schools, especially the philosophical school.

Hence, this research came to clarify the most important Qur'anic citations in light of these moral concepts. We decided to divide this study into two sections: the first on virtues, the second on vices.

المقدِّمة

الحَمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ، الذي دَلَّت شواهدُهُ ونَعْمَاؤه على عظمتِهِ وعِزَّتِهِ، وصلَّى اللهُ على الشَّاهدِ والمبشِّرِ والنذيرِ محمَّدٍ الخيرِ والبركةِ، وعلى آلِهِ شواهدِ الرَّشادِ وأدِلَّةِ الخيرِ والفَلاحِ.

أمَّا بَعْدُ،

فإنَّ عدَم الاكتراثِ بدراسة علم الأخلاق، وقلَّة الاهتمام به، أدَّى إلى تخلُّف علميّ واضح في هذا الحقل المعرفيّ، فالتعاليمُ الأخلاقيَّةُ تَشْغِلُ مكانةً كبيرةً من النصوصِ الدينيَّةِ والكتبِ السماويَّةِ، وقدِ اشتملَ القرآنُ الكريمُ على العديد من الخطاباتِ التي تَحثُّ البشريَّةَ على الالتزامِ بالأخلاقِ الحميدةِ، وتهذيبِ النفسِ، والأخذِ بالقيمِ الإنسانيَّةِ العليا، وهذه الخطاباتُ الأخلاقيَّةُ تمثِّل منظومةً كبيرةً في المنظورِ الإسلاميِّ بوصفها أحدَ أهمِّ مقاصدِهِ وأهدافِهِ.

والحقيقةُ الساطعةُ هي أنَّ حظَّ التراثِ الإسلاميِّ من البحوثِ النظريَّةِ الأخلاقيَّةِ في مجالِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ، أقلُّ كثيرًا ممَّا وَصَلَ إلينا في مجال الفِقْه والتفسيرِ والحديثِ والكلامِ، وحتَّى الفلسفةِ، وتُعدُّ الكتبُ الأخلاقيَّةُ الحِلِّيَّةُ البدايات الأولى لهذا الحقلِ المعرفيِّ المثمرِ، من نَحْوِ كتابِ (تنبيه الخواطر ونُزهَة النواظر) للشيخ ورَّامٍ الحِلِّيّ (ت٦٠٥هـ)، وكُتُبِ السيد رضيّ الدين عليّ بن طاووس الحِلِّيّ (ت٦٦٤هـ) الأخلاقيَّة، منها (كشف المحجَّة لثمرة المهجة)، و(محاسبة الملائكة الكرام آخر كلِّ يومٍ من الذنوب

والآثام أو محاسبة النفس)، وغَيْرِها، ووصيَّة العلَّامة الحِلِّيّ (ت٧٢٦هـ) لولدِه محمَّد فخرِ المحقِّقين (ت٧٧١هـ)، وكتاب (عُدَّة الداعي ونجاح الساعي) للشيخ ابن فَهْدٍ الحِلِّيّ (ت٨٤١هـ)، وغَيْرِها من الكتب الأخلاقيَّة.

ولا يفوتُنا أن نذكرَ ما تركه لنا العلماءُ في هذا الحقلِ المعرفيّ في المدارس الأخرى من كُتُبٍ أخلاقيَّةٍ، من نَحْوِ كِتَاب (تهذيبِ الأخلاق) لابن مسكويه (ت٤٢١هـ)، وكتابِ (إحياء علوم الدين) للغزَّاليّ (ت٥٠٥هـ)، وكتابِ (الفتوحات المكيَّة) لابن عربيّ (ت٦٣٨هـ)، وغيرِها، وكلَّما كانت مصادرُ البحثِ ومراجُعها مصطفاةً ومنتقاةً، ولها علاقة بالجنبة الأخلاقيَّة، كانت أكثرَ مَيْدانًا للباحثين، ولا يخفى أن الجهودَ التي بُحثتْ في الأخلاقِ ومباحثِها ظلَّت مبعثرةً في بطون الكتب التي لم تقتصر على معالجةِ الأخلاقِ، بل غَلَبَت عليها آراءُ آخرى في الفقه، والشريعةِ، وعلومِ الدين، واللغةِ، بمعنى أنَّ هذه الكتبَ كانت تعتمدُ على الآراء الشخصيَّة فحسب.

وبَعْدَ استقراءِ المفاهيم الأخلاقيَّة في الخطابِ الأخلاقيّ عند مدرسةِ الحِلَّةِ، بَدَا لنا أنْ تكونَ الدراسة بعنوانِ (المفاهيم الأخلاقيَّةِ في الخطابِ الأخلاقيِّ عند علماءِ الحِلَّةِ)، وقسَّمناهُ على مبحثَين، الأوَّلِ: الفضائل، وهي: الدُّعاءُ، والصَّبْرُ، والعَفْوُ، والتَّوكُّلُ على اللهِ، والتَّقوَى، ومحاسبةُ النَّفسِ، والثاني: الرَّذائلُ، وهي: الرِّياءُ، والتَّبذيرُ، وحُبُّ الدنيا، واتِّباعُ الهَوَى، والظُّلمُ، ثُمَّ خَتَمْنَا البحث بخاتمةٍ استجلينا فيها أهمَّ النتائجِ التي توصلَّنَا إليها، ثمَّ اتبَعناها بقائمةِ المصادرِ والمراجعِ.

المبحث الأوَّل

الفضائل

في هذا المبحث سيكون مجال التعريف بالسلوكيَّات الحميدة، والفضائل الروحيَّة، فضلًا عن ذلك الإشارة -بحسب المُكْنة- إلى الأساليب التي يمكن في ضوئها التحلِّي بالفضائل، وتُعين المرء على دفع الرذائل، وقد يُراد بقسمٍ منها (أخلاق العبوديَّة)، وهي مجموعة الفضائل من قبيل الإيمان،التعبُّد، الخوف، التوكُّل، وهي فضائل ضمن علاقة الإنسان بالله، وأمَّا الأخلاق الفرديَّة، فالمقصود بها مجموعة الفضائل التي ترتبط بالحياة الفرديَّة للناس، نظيرها فضائل الصبر، والحكمة، والحزم.

المطلب الأوَّل: الدُّعاء

قبل أن نَلِجَ في هذا المفهوم الذي نُعدُّه مسلكًا مهمًّا في الخطاب الأخلاقيّ، لا بُدَّ لنا من بيان حقيقة الدعاء لغةً واصطلاحًا.

أوَّلًا. الدُّعاء لغةً: قال ابن فارس (٣٩٥هـ): «كلمة الدعاء في الأصل مصدر من قولك: دعوتُ الشيء أدعوه دعاءً، وهو أن تُميل الشيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك»[1]؛ فتنبِّه المتلقِّي والدعوة على إمالته، ويكون بصوت وكلام من المتكلِّم.

وقال ابن منظور (٧١١هـ): «دعا الرجلَ دعوًا ودعاءً: ناداه، والاسم: الدعوة ودعوت فلانًا: أي صِحْتُ به واستدعيْتُه، وجاء فيها أيضا: الدعاء لغة مصدر دعوت

(١) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٢٧٩.

الله أدعـوه دعاء ودعوى، أي ابتهلت إليه بالسـؤال، ورغبت فيـما عنده من الخير، وهو بمعنى النداء»[1].

ويبـدو في ضوء كلام ابـن منظور أنَّه تَلَمَّس جملةً من الـدلالات التي تحصَّلت من مشـتقَّات مادَّة (د ع و)، منها الابتهال والخشـوع بالسؤال، والرغبة فيما عنده من الخَيْر، والنداء وطلب الإقبال، والاستعانة بالأمر، والسوق إليه.

ثانيًـا. الدعـاء اصطلاحًا: هـو الكلام الإنشـائيّ الدالُّ على الطلـب مع الخضوع، ويسـمَّى أيضًا سـؤالًا، ويرى الخطَّابيّ: حقيقة الدعاء اسـتدعاء العبد مـن ربِّه العناية، واسـتمداده إيَّاه المعونـة، وحقيقته إظهار الافتقار إليه، والبراءة مـن الحَول والقوَّة التي له، وهو سمة العبوديَّة، وإظهار الذِّلَّة البشريَّة، وفيه معنى الثناء على الله، وإضافة الجود والكرم إليه[2].

ويـرى العلَّامـة الحِلِّيّ أنَّ «الدعاء ممارسـة عباديَّـة لها حجمها الكبـير في التشريع، ولهـا شرائطهـا ومصداقهـا، ومـا إلى ذلـك ممَّـا لا علاقـة بهـذه الشـعيرة العباديَّـة، والـذي يـبرز مـن خـلال طائفة مـن الآيـات والروايـات الكثـيرة التي تناولهـا علماء المسـلمين، بالحـثِّ والتحقيـق والتصنيـف والتأليـف، فأفـردوا لهـا كتبًـا ومؤلَّفـاتٍ عديدةً»[3].

ويـرى ابـنُ فَهْدِ الحِـلِّيّ أنَّ «الدعاء في الاصطـلاح العبادة، أو في ما يكـون التذلُّل والخشـوع للمعبـود»[4]. وقد جُعل الدعـاء بمنزلة المخِّ من الدماغ، فـإذا دعا العبد ربَّه

(١) لسان العرب، مادَّة (د ع و): ١٤/ ٢٥٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) منهاج الصلاح في اختصار المصباح المنير: ٥.
(٤) عدَّة الداعي ونجاح الساعي: ٢٣

وتضرَّع إليه، واستمدَّ منه العون في أمر دينه ودنياه؛ تأصَّلت عبادته، وأصبحت لها قيمةً وأثرًا من سُـمُوِّ العبد ورقيِّه في الحياة، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**الدعاء مخُّ العبادة، ولا يهلك مع الدعاء أحد**»(١).

وينبغـي لذِي الإيمان الصريـح، والاعتقاد الصحيح، في تصديق الرسـول، وأبناء الزَّهـراء البتول، فيما يخبِرون به مـن معالم التنزيل، ويؤدُّونه عن الرَّبِّ الجليل، أن يبعث في تلك الساعات مع ذلك المنادى حوائجه في جواب ندائه، كما لو وقف على بابه رسول ملك من ملوك الدنيا، واستعرض حوائجه، وقال: إنَّ الملك قد أذِن لي في إعلامك برفع حوائجك إليه؛ ليقضيها لك، فإنَّه يغتنم ذلك الاسـتعراض، ويذكر ما أهمَّه من الحوائج والأغـراض، ولا يبقـى له حاجة ولا لأهـل عناية إلَّا ذَكَرها عـلى التفصيل، خصوصًا إذا كان ذلـك الملـك موصوفـا بالعطاء الجزيـل، ومعروفـا بالثناء (بالفعـل) الجميل، ولا يعرض عن منادى الملك مع حاجته إلى مرسـله، وينفصل عنه بغير جواب، ويضيع المقصود من هذا الخطاب أعراض المتهاونين، فيسـتحقّ سـخَطَ الملك، ويبوء بجواب: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، أو إعراض الغافلين، فيقع في عساكر المحرومين، ويبوء بثقله وما وزر(٢).

لَمَـحَ ابنُ فَهْـدٍ الحِلِّيّ العلاقة بين الخالق العظيم الموصـوف بالعطاء الممنون الجزيل، وبين عَبْده الفقير إلى رحمةِ الله، ضمن هذا فإنَّ دعاء الله أمر لازم لا مُتَعْدي عنه من أجل تحقيق الغاية المرجوَّة وهي اسـتجابة الدعـاء، وإنَّ التهاونَ في طلب الرجاء من الله جلّ جلاله، يعني اسـتحقاق السخَط، ونيل الغضب منه تعالى، وهذا ما اسـتشرفَهُ ابنُ فَهْدٍ الحِلِّيّ في

(١) ينظر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار: ٩٣/ ٣٠٠.
(٢) عدَّة الداعي ونجاح الساعي: ٤٤.

استدلاله بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، والتفتَ الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ) إلى كونِ الدعاءِ كثيرًا في القُرْآن، مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، قال: «والاستجابة: الإثابة؛ وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم، وعن الحسن، وقد سُئِل عنها: اعملوا وأبشروا، فإنَّه حقٌّ على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله، وعن الثوريّ أنَّه قيل له: ادعُ الله، فقال: إنَّ ترك الذنوب هو الدعاء، وفي الحديث: «**إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»، وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الدعاء هو العبادة**»، وقرأ هذه الآية، ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويريد بعبادتي: دعائي؛ لأنَّ الدعاء باب من العبادة، ومن أفضل أبوابها، يصدقه قول ابن عبَّاس رضي الله عنه: أفضل العبادة الدعاء»[1].

وذَكَر الفخر الرازيّ (٦٠٦هـ) أمرَين مهمَّين في النصِّ التفسيريّ الخاص بالآية المفسَّرة، الأوَّل: أنَّ الدعاء أفضل العبادات، وأهمّ المهمَّات، قال: «لما بيَّن أنَّ القول بالقيامة حقٌّ وصدقٌ، وكان من المعلوم بالضرورة أنَّ الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلَّا بطاعة الله تعالى، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهمِّ المهمَّات، ولـمَّا كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرُّع، لا جرم أمر الله تعالى به في هذه الآية فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

واختلف الناس في المراد بقوله ﴿ادْعُونِي﴾، فقيل إنَّه الأمر بالدعاء، وقيل إنَّه الأمر

(١) الكشَّاف: ٦/ ١٢٩.

بالعبادة، بدليل أنَّه قال بعده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾، ولولا أنَّ الأمر بالدعاء أمر بمطلق العبادة؛ لما بقي لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ معنى، وأيضًا الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، كقوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ (النساء: ١١٧).

وأجيب عنه بأنَّ الدعاء هو اعتراف بالعبوديَّة والذلَّة والمسكنة، فكأنَّه قيل إنَّ تارك الدعاء إنَّما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبوديَّة، وأجيب عن قوله إنَّ الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، بأن تركَ الظاهرة لا يصار إليه إلَّا بدليل منفصل، فإن قيل كيف قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾، والثاني: فائدة الدعاء»[1].

وتأمَّل الطاهرُ بنُ عاشورٍ الملمحَ البيانيّ في النصِّ القرآنيّ، «فبعد أن عرَّف العبادة بأنَّها في اصطلاح القرآن إفراد الله بالعبادة، أي الاعتراف بوحدانيَّته، والاستجابة تُطلَق على إعطاء المسؤول لمن سأله، وهو أشهر إطلاقها، وتطلق على أثر قبول العبادة بمغفرة الشِّرك السابق، وبحصول الثواب على أعمال الإيمان، أشار إلى الفعلَين (ادعوني)، و(أستجب) علمنا أنَّ في المعنى المراد ما يشبه الاحتباك بأن صرَّح بالمعنى المشهور، في كِلَا الفعلَين، ثمَّ أعقب بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾.

فعلمنا أنَّ المراد الدعاء والعبادة، وأنَّ الاستجابة أُريد بها قبول الدعاء، وحصول أثر العبادة، ففعل (ادعوني) مستعمل في معنَيَيه بطريقة عموم المشترك، وفعل (أستجب) مستعمل في حقيقته ومجازه، والقرينة ما علمتَ، وذلك من الإيجاز والكلامِ الجامع»[2].

وأبانَ ابن فَهْدٍ الحلّيّ في خطابه الأخلاقيّ في معرض حديثه عن مسلك الدعاء،

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ١٣/ ٣٥٢.
(٢) التحرير والتنوير: ١٢/ ٤٦٥.

قال: «فيما أُلحِق بالدعاء، وهو الذِّكر، ولـمَّا كان المقصود من هذا الكتاب التنبيه على فضل الدعاء والإشارة إلى ما يستظهر به الداعي، واشتمل من ذلك على نبذة مقنعة وجملة كافية، أجبنا أن نردف ذلك بما يساوى الدعاء في الفضل والتحثيث عليه، وقيامه مقامه في تحصيل المراد ودفع الأهوال الشِّداد، وهو الذِّكر، وقد ظهر ممَّا ذكرناه من فوائد الدعاء أنَّه يبعث عليه العقل والنقل من الكتاب والسنَّة، وأنَّه يرفع البلاء الحاصل، ويدفع السوء النازل، ويحصل به المراد من جلب النفع، وتقرير الحاصل منه ودوامه»[1].

وابنُ فَهْدٍ تنبَّه على فضيلة الدعاء، والحثِّ عليه، وبيان أثره في تحصيل المراد والمطلوب، ودفع الأحوال والمصائب، مسترشدًا بما ورد من النصوص القرآنيَّة، والأحاديث النبويَّة الشريفة.

ومن الشواهد المتَّصلة بمسلك الدعاء في الخطاب الأخلاقيّ الحِلِّيّ، ما ذكره ابنُ فَهْدٍ الحِلِّيّ، قال في الدعاء: «إنَّ الدعاء عبادة في نفسه تعبد الله عباده به؛ لما فيه من أظهار الخشوع والافتقار إليه، وهو أمر مطلوب لله ﷻ من عبيده، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، والعبادة في اللغة: هي الذلَّة، يُقال: طريق معبَّد أي مذلَّل بكثرة الوطي عليه، وفى الاصطلاح العبادة أو في ما يكون من التذلُّل والخشوع للمعبود»[2].

بَصر ابنُ فَهْدٍ حقيقة الدعاء بأنَّه عبادة في نفسه؛ لأنَّه خضوع وخشوع وإخبات لله تعالى، مسترشدًا بالدلالة اللغويَّة للدعاء، وكذلك الدلالة الاصطلاحيَّة للدعاء.

(١) عدَّة الداعي ونجاح الساعي: ٢٤٦-٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه: ٢٣.

وترسَّم الشيخ الطوسيّ (٤٦٠هـ) الجنبة الكلاميَّة في النصِّ المبارك، في ضوء تلمُّس دلالة حرف (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ أنَّها لام الغرض، وليست لام العاقبة، قال: «هذا إخبار من الله تعالى أنَّه لم يخلق الجنَّ والإنس إلَّا لعبادته، فإذا عبدوه؛ استحقُّوا الثواب، واللام لام الغرض، ولا يجوز أن يكون لام العاقبة؛ لحصول العلم بأن كثيرًا من الخلق لا يعبدون الله، وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة القائلين: بأنَّ الله خلق كثيرًا من خلقه للكفر به، والضَّلال عن دينه، وخلقهم ليعاقبهم بالنيران؛ لأنَّه لا يجوز أن يكون في كلام الله تعالى تناقض، ولا اختلاف وقوله: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾ (الأعراف: ١٧٩) قد بيَّنَّا في ما مضى أن اللَّام لام العاقبة، والمعنى أنَّه خلق الخلق كلَّهم لعبادته، وتصير عاقبة كثير منهم إلى جهنَّم بسوء اختيارهم من الكفر بالله، وارتكاب معاصيه»[١].

وهذا التبصُّر الكلاميّ للشاهد القُرْآنيّ فَطَنَ له الزمخشريّ بأنَّ العبادة ليست للجميع، بل هي للمختصِّين منهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، أي: لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلَّا إيَّاها، فإن قلت: لو كان مُريدًا للعبادة منهم؛ لكانوا كلُّهم عبادًا؟ قلت: إنَّما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة، لا مضطرين إليها؛ لأنَّه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدًا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء؛ لوجِدت من جميعهم[٢].

وجعل الطاهر بن عاشور الخبر في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ خبر مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التي خُلقوا عليها، فخالفوا سنَّتها اتِّباعًا لتضليل المضلِّين، والجن: جنس من المخلوقات مستتر

(١) التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ٣٨٧.
(٢) ينظر: الكشَّاف: ٦/ ٤٢٥.

عن أعين الناس، وهو جنس شامل للشياطين، قال تعالى عن إبليس: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ (الكهف: ٥٠)، والإنس: اسم جمعٍ واحدُه إنسي بياء النِّسبة إلى اسم جمعِه، والمقصود من هذا الإخبارِ هو الإنس، وإنَّما ذُكر الجن إدماجًا، وستعرف وجه ذلك، والاستثناء مفرَّغ من علل محذوفة عامَّة على طريقة الاستثناء المفرَّغ، واللام في ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ لام العلَّة، أي ما خلقتهم لعلَّة إلَّا علَّة عبادتهم إيَّاي، والتقدير: لإرادتي أن يعبدون، ويدلُّ على هذا التقدير قوله في جملة البيان: ما أريد منهم من رزق، وما أريد أن يطعمون، وهذا التقدير يلاحَظ في كلِّ لامٍ ترد في القرآن تعليلًا لفعلِ الله تعالى، أي ما أرضَى لوجودهم إلَّا أن يعترفوا لي بالتفرُّد بالإلهيَّة»[1].

المطلب الثاني: مفهوم الصَّبر

أوَّلًا. الصَّبْر لغة: وهو نقيض الجزع، صَبَرَ يَصبرُ صَبرًا، وأصل الصبر حَبْسُ النفس عن الجزع، وكلُّ مَن حبس شيئًا فقد صَبَرَهُ[2]، والصبر: الإمساك في الضيق، يُقال لغة الدابة: حبسها بلا علف[3]

وقال الراغب الأصفهانيّ (٤٢٥هـ): «حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشَّرع، أو عمَّا يقتضيان حبسها عنه»[4].

ثانيًا. الصبر اصطلاحًا: في ظلِّ الوقوف على بعض من تعريفات الصبر، قال الغزَّاليّ (٥٠٥هـ): هو مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين[5]؛ وهو

(١) التحرير والتنوير: ١٤/ ١٢١.
(٢) ينظر: لسان العرب: ٤/ ٤٣٧.
(٣) ينظر، مفردات ألفاظ القرآن: ٤١٥.
(٤) المصدر نفسه: ٤٧٤.
(٥) إحياء علوم الدين: ٤/ ٦٢.

توطين النفس على تحمُّل المكارة، وعدم إظهار الجزع، وعدم الاضطراب عند البلاء والمصائب؛ وهذا أيضًا قسر النفس على مقتضيات الشَّرع والعقل أوامر ونواهٍ، وهو دليل رجاحة العقل، نجد أنَّ في القرآن الكريم بيانًا قيِّمًا في الصبر، وكيف يكون أنَّ النفس الإنسانيَّة، مع بيان المواقف التي تستدعي الصبر وبيان ثوابه العظيم، وهو على ثلاثة أقسام:

١. الصبر على الطاعة: في ضوء الثبات أمام التحدِّيات والمعوِّقات في طريق الطاعة.

٢. الصبر على المعصية: في ضوء مقامات الشهوات، والابتعاد عن المعاصي.

٣. الصبر على المصيبة: بترك الجزع أمام الحوادث الصعبة ومقاماتها[١].

وقال الشريف الجرجانيّ: وهو ترك الشكوى من ألم البلوغ لغير الله، لا إلى الله[٢].

والصبر في القرآن الكريم من أكثر الأخلاق التي اعتنى بها دين الإسلام؛ لذا تكرَّر ذِكره في القرآن في مواضع كثيرة، قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: ذَكَر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا، وهو قوَّة تمكِّن الإنسان في ضبط النفس، وتحمُّل الآلام والمشاقِّ والمتاعب، وهو أمارة على إرادة الإنسانيَّة، وقوَّتها.

ومن الاستشهادات القرآنيَّة، ما جاء في باب الصبر، قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ﴾ (البقرة: ٤٥).

قال الشيخ ورَّام: «قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ﴾، فالصبر هو منع النفس عن محابها، وكفِّها عن هواها، وهو خلق محمود أمر

(١) جامع السعادات: ٣/ ٦٣٣.
(٢) ينظر: التعريفات: ٢٤١.

الله تعالى به، ودلَّ عليه، وهو الصبر على طاعته، واجتناب معصيته، ووجه الاستعانة بالصلاة لمكان ما فيها من تلاوة القرآن، والدعاء والخضوع لله والإخبات، فإنَّ ذلك معونة على ما يتنازع إليه النفس من حبِّ الرئاسة والأنفة من الانقياد للطاعة»[1].

فقد أشار الشيخ ورَّام إلى تعريف الصبر بلحاظَين، هما: منع النفس عن محابها من جهة، وكفِّها عن هواها من جهة أخرى، كاشفًا عن كونه فعلًا محمودًا، لأنَّه طريقٌ إلى طاعة الله جل جلاله، والسعي في رضاه، واجتناب نواهيه.

وقد شجَّع الشيخ الطوسيّ كون الخطاب في النصِّ المبارك للعموم والشمول، وأنَّه لا يخصُّ المؤمنين،ولا أهل الكتاب، قال: «قال الجُبَّائِيّ: هذا خطاب للمؤمنين دون أهل الكتاب، وقال الطبريّ والرُّمَّانيّ: هو خطاب لأهل الكتاب، ويتناول المؤمنين على وجه التأديب، والأقوى أن يكون خطابًا لجميع من هو بشرائط التكليف، لفقد الدلالة على التخصيص، واقتضاء العموم ذلك، فمن قال: إنَّه خطاب لأهل الكتاب، قال: لأنَّه قال: واستعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتكم في كتابكم عليه: من طاعتي، واتِّباع أمري واتِباع رسولي، وترك ما نهيتكم عنه، والتسليم لأمري ولمحمَّد صلى الله عليه وآله بالصبر والصَّلاة»[2].

وأشار إلى أن الصَّبر المأمور به في الآية، أمران، أحدهما: الصبر على طاعته، واجتناب معصيته، والثاني: أنَّه الصَّوم[3].

وتلمَّس الزمخشريّ دلالة العموم والشمول في الخطاب القُرْآنيّ، جاعلًا الصَّبر الصَّوم في أحد نقولاته، والصَّبر على مكارة الأشياء[4].

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢/ ٨٢-٨٣.
(٢) التبيان في تفسير القرآن: ١/ ١٩٩-٢٠١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ينظر، الكشَّاف: ١/ ٨٦.

وقيد الطاهر بن عاشور الخطاب في النصِّ القُرْآنيّ بأنَّه:«خطاب لبني إسرائيل، بالإرشاد إلى ما يعينهم على التخلُّق بجميع ما عدَّد لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلِّي بالمحامد، والتخلِّي عن المذمَّات، له أحسن وقع من البلاغة، فإنَّهم لـمَّا خوطِبوا بالترغيب والترهيب والتنزيه والتشويه، ظنَّ بهم أنَّهم لم يبقَ في نفوسهم مسلك للشيطان، ولا مجال للخذلان، وأنَّهم أنشؤوا يتحفَّزون للامتثال والائتساء»[1].

ويرى أنَّ الصبر «من ملاكات الهوى، فإنَّ ممَّا يصدُّ الأمم عن اتِّباع دين قويم، إلفهم بأحوالهم القديمة، وضعف النفوس عن تحمُّل مفارقتها. فإذا تدرَّعوا بالصبر؛ سهل عليهم اتِّباع الحقِّ، وأمَّا الاستعانة بالصلاة، فالمراد تأكُّد الأمر بها الذي في قوله: ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ﴾ (البقرة: ٤٣)، وهذا إظهار لحسن الظنِّ بهم، وهو طريق بديع من طرق الترغيب»[2].

الردُّ على كونه الخطاب للمسلمين: هذا وهم؛ لأنَّ وجود حرف العطف ينادي على خلاف ذلك، ولأنَّ قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ مراد به إلَّا على المؤمنين، حسبما بيَّنه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ الآية اللهمَّ إلَّا أن يكون من الإظهار في مقام الإضمار، وهو خلاف الظاهر، مع عدم وجود الداعي، والذي غرَّهم بهذا التفسير توهُّم أنَّه لا يؤمَر بأن يستعين بالصلاة مَن لم يكن قد آمن بعد، وأي عجب في هذا؟ وقريب منه آنفًا قوله تعالى: ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ﴾ (البقرة:٤٣) خطابًا لبني إسرائيل لا محالة[3].

ويبدو أنَّ الشيخ ورَّامًا قَدِ استعان بالسياق القُرْآنيّ في توظيفه من أجل الظَّفر

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٢٧٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٧٦.

بالدلالـة المرادة من الفعل، واسـتعينوا بالصَّـبْر والصلاة من جهـة، وكون الخطاب في النـصِّ للعموم والشـمول، ولم يختصّ بفئة من النـاس، وأنَّ الصبر ليس هو الصوم، بل في كلِّ عمـل بـذر بمعصية الله تعالى، وتنتهك محارمه، والسـعي إلى رضاه في ظلِّ تعويد النفس على الصَّبْر ومحاسبتها.

المطلب الثالث: العفو

أولًا. العفـو لغةً: هو المكان الذي لم يوطأ، تقول: هذه الأرض عفو: ليبس فيها أثر فلا ترع، وطعام عفو: لم يمسّـه أحد قبلك، وأمَّا قولهم عفا: درس، فهو من هذا، وذلك أنَّـه الشيء يُترَك فلا يتعهد ولا ينزل، فيخفي على مرور الأيَّام، وقول قائل: عفا: درس، وعفـا: كثـر، وهو من الأضداد ليس بـشيء، إنَّما المعنى هو ذكرناه، فـإذا ترك ولم يتعهَّد حتَّـى خفيـه على مرِّ الدهر؛ فقد عفا، وإذا ترك فلم يقطع ولم يجز؛ فقد عفا، والأصل فيه كلُّه الترك[1].

نَخْلصُ من هذا إلى التواشج الدلاليّ من المعنَيَين اللُّغويّ والاصطلاحيّ، والانمحاء والاندثار يعني إزالة الشيء، كذلك العفو بمعنى رفع الأثر والعقوبة، وتركها.

ثانيًـا. العفو اصطلاحًا: وأمَّـا العفو في الاصطلاح، فـيرى المصطفويّ أنَّ الأصل الواحـد في المـادَّة: «هـو صرف النظر عـن سيِّء في مورد يقتـضي النظـر والتوجُّه إليه، وأنَّ العفـو من أسـماء الله تعالى؛ فإنَّ صرف النظر عن خطايـا العبيد، وغضَّ البصر عن ذنـوب الضعفاء: مِن أعزِّ صفات الكرم، ومن أحسـن شـيم الموالي، كـما في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النسـاء: ١٤٩)، وقوله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩).

(١) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٤٧٢.

فالصفح: هو انصراف وعدول إلى جانب الشَّيء، وهذا المعنى إنَّما هو فيما بين العفو والغفر، فإنَّ العفو مُطلق صرف النَّظر، كما أنَّ التوبة قبل العفو والصفح، ومثل التوبة هو كظم الغيظ، وقبول التوبة، وتبديل السيِّئة بالحسنة، وكلُّ ما يقتضي عفوًا، فإنَّ العفو كسائر الأمور يحتاج إلى وجود الاقتضاء، وما دام لم يوجد الاقتضاء المناسب، لا يصحُّ لحوق العفو، والعفو: هو مسير لكلِّ فرد، فقيرًا أو غنيًّا، بخلاف الإنفاق، فيكون العفوُ أعمَّ؛ لأنَّه مطلق صرف النظر عن أيِّ شيءٍ، مالًا أو حقًّا»[1].

يتجلَّى لنا في نصِّ المصطفويّ ما يأتي:

أوَّلًا: إنَّ العفو صرف النظر عن أمرٍ سيِّءٍ في مورد يقتضي القيام بالترك وإغضاء النظر عنه.

ثانيًا: العفو يقتضي الاقتضاء، بمعنى الجرم المشهود الذي يستوجب العفو.

ثالثًا: إنَّ العفو أعمُّ وأشمل من الصفح؛ لأنَّه مطلق صرف النظر عن أيِّ شيء، مالًا أو غيره.

ومن الاستشهادات القرآنيَّة في هذا الباب، ما جاء في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلِّيّ، قال: «فَقَدْ رُوِّينَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَفْضَلَ الرُّسُلِ، كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وهُوَ قُدْوَةٌ لأَهْلِ الإِسْلَامِ، أقول ثمَّ يجلس بين يدي مولاه الذي أنشأه وربَّاه ومكَّنه من مساعدة دنياه وآخرته، ولو ساعة واحدة أواخر كلِّ ليلة، ويحاسب ملكي الليل كما يحاسب ملكي النهار، ويجتهد في تطهير صحيفته من الآثام والآثار، فَإِنْ شَاءَ فَلْيَقُلْ: سَلَامُ اللهِ ﷻ، وسَلَامُ خَاصَّتِهِ، وسَلَامِي عَلَيْكُمَا أَيُّهَا الْمَلَكَانِ الْحَافِظَانِ، أَسْتَوْدِعُكُمَا اللهَ ﷻ، وأَقْرَأُ عَلَيْكُمَا السَّلَامَ، وأَتَوَجَّهُ إِلَيْكُمَا بِاللهِ الْمُنْعِمِ عَلَيْكُمَا أَنْ تُشَرِّفَانِي بِجَوَابِ التَّسْلِيمِ،

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣/ ٢٢١-٢٢٣.

وتُسَاعِدَانِي عَلَى سُلُوكِ السَّبِيلِ الْمُسْتَقِيمِ، وتَشْفَعَا إِلَى مَوْلَاكُمَا الْحَلِيمِ الرَّحِيمِ الْكَرِيمِ، أَنْ يَعْفُوَ عَنِّي ويَرْحَمَنِي، ويَرْضَى عَنِّي، ولَا يُشْمِتَ بِي عَدُوَّهُ وعَدُوِّيَ الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ، فَهَا أَنَا قَدْ سَلَّمْتُ نَفْسِي إِلَيْهِ، واسْتَسْلَمْتُ مِنْ يَدِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وأَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ، وبِجَمِيعِ الْوَسَائِلِ إِلَيْهِ فِي الأَمْرِ لَكُمَا بِمَحْوِ السَّيِّئَاتِ وتَبْدِيلِهَا بِمَا هُوَ ﷻ أَهْلٌ مِنَ الْمَرَاحِمِ والْحَسَنَاتِ، وهَا أَنَا أَقُولُ مَا قَالَ الْمُقْبِلُونَ مِنَ النَّادِمِينَ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣)[1].

يتوسَّل ابنُ طاووس بالملكَين الحافظَين أن يشرِّفاه بجواب التسليم والانقياد لله ﷻ، ويساعداه على سلوك السبيل الصحيح، وأن يشفعا له العفو، والرحمة ونيل رضا الله ﷻ.

وقد نزَّه الطبرسيّ آدم وحوَّاء من الخطيئة التي قَد يُفْهَم منها في النصِّ القُرْآنيّ، قال: «(قالا) أي قال آدم وحوَّاء لـمَّا عاتبهما الله سبحانه، ووبَّخهما على ارتكاب المنهي عنه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ومعناه بخسناها الثواب بترك المندوب إليه، فالظلم هو النقص، ومن ذهب إلى أنَّهم فعلًا صغيرة؛ فإنَّه يحمل الظلم على تنقيص الثواب»[2].

وألصق الطاهرُ بنُ عاشورٍ الاعتراف بالمعصية من لدن آدم وحواء، وأنَّهما عَلِمَا «أنَّ ضرَّ المعصية عاد عليهما، فكانا ظالمين لأنفسهما، إذ جرَّا على أنفسهما الدخولَ في طور ظهور السموات، ومشقَّة اتِّخاذ ما يستر عوراتهما، وبأنَّهما جَرَّا على أنفسهما غضب الله تعالى، فهما في توقُّع حقوق العذاب، وقد جزما بأنَّهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما، إمَّا بطريق الإلهام، أو نوع من الوحي، وإمَّا بالاستدلال على العَواقب بالمبادىء،

(١) محاسبة الملائكة الكرام آخر كلِّ يوم من الذنوب والآثام أو محاسبة النفس: ٣٧٤-٣٧٥.
(٢) مجمع البيان: ٤/ ٢١٠.

فإنَّهما رأيا من العصيان بوادِيء الضرِّ والشَّرِّ، فعلما أنَّه من غضب الله، ومن مخالفة وصايته، وقد أكَّدا جملة جواب الشَّرط بلام القَسَم ونون التَّوكيد؛ إظهارًا لتحقيق الخسران، استرحامًا واستغفارًا من الله تعالى»[1].

ولا يخفى أنَّه لم يلتفت إلى تنزيه الأنبياء الذي لا يصدر عنهم الخطأ في القول والفعل، لكن في باب ترك الأولى، وهذا ما نبَّه عليه ناصر مكارم الشيرازيّ، والخطوة الأولى في سبيل التوبة والإنابة إلى الله، وإصلاح المفاسد، هي: أن ينزل الإنسان عن غروره ولجاجته، ويعترف بخطأه اعترافًا بَنَّاءً واقعًا في سبيل التكامل[2].

المطلب الرابع: التوكُّل على الله

أوَّلًا. التوكُّل في اللغة: هو الاعتماد على غيرك، وتخلية الأمر إليه، والتوكُّل تَفَعُّل، ويدلُّ على مطاوعةٍ وأخذٍ واختيارٍ[3].

وقال الراغب الأصفهانيّ: «التوكُّل: أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائبًا عنك، والوكيل فعيل، بمعنى المفعول، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ٨١)، أي اكتفِ بها أن يتولَّى أمرك ويتوكَّل لك، وعلى هذا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣) أي بموكّل عليهم وحافظ لهم كقوله: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ (الغاشية: ٢٢-٢٣)، والتوكُّل يقال على نوعَين: توكَّلت لفلان بمعنى: تولَّيت له، ويقال وكَّلته فتوكَّل لي، وتوكَّلت عليه، بمعنى: اعتمدت عليه[4]، ولا يخفى أنَّ في النصَّين دلالة الاعتماد، والركون إلى غير المتوكِّل، وأنَّ المتوكِّل أعمُّ من

(١) التحرير والتنوير: ٥/ ٢٥٨-٢٥٩.
(٢) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤/ ٦٠٢-٦٠٣.
(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٣/ ١٠٥.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٨٨٢.

الكفيل، من هنا جاءت دلالة مادَّة (و ك ل) الأساسيَّة بمعنى تولِّي الأمر، والاعتماد على غيرك.

ثانيًا. التوكُّل اصطلاحًا: أمَّا في الاصطلاح، فقد عرَّفه الشريف الجرجانيّ، قال: «التوكُّل هو الثقة بما عند الله، واليأس عمَّا في أيدي الناس»[1]، وذكَر محمَّد مهدي النراقيّ (ت١٢٠٩هـ) مجموعة من التعريفات الاصطلاحيَّة له، قال: «التوكُّل اعتماد القلب في جميع الأمور على الله، وبعبارة أخرى: حوالة العبد جميع أمور على الله، وبعبارة أخرى: هو التبرِّي من كلِّ حولٍ وقوَّة، والاعتماد على حول الله وقوَّته، وهو موقف على أن يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنَّه لا فاعل إلَّا بالله، وأنَّه لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، وأنَّ له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثمَّ تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنَّه ليس وراء منتهى قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته عناية»[2].

نستخلص فيما تقدَّم من التعريفات الاصطلاحيَّة أنَّ التوكُّل من الاعتماد على الله جلَّ جلالُه، وإلجاء الأمور إليه في تدبُّر الأمور وتقديرها، بمعنى أنَّ الثقة بما عند الله، واليأس بما عند الآخرين.

ومن الاستشهادات القرآنيَّة في الخطاب الأخلاقيّ عند علماء الحِلَّة، ما جاء في فضل التوكُّل على الله في كتاب عدَّة الداعي ونجاح الساعي، إذ أشار ابنُ فَهْدٍ الحِلِّيّ إلى أنَّ للمتوكِّل درجة عظيمة، وصفة من صفات الصدِّيقين، ومَنْ وصل إليها بطل عنه قيد الاهتمام، وانحلَّ عنه زمام الطلب، واضمحلَّ عنه داعية الاكتساب، وتقشَّعت عنه سحائب الغمِّ، و(سحَّت) عليه مُزُنُ الأمن، وجلس على موائد الرضا، وارتوى

(١) التعريفات: ٧٤.
(٢) جامع السعادات: ٣/ ٢٢٠.

مـن حيـاض الطمأنينة، قـال الله تعـالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ (آل عمـران: ١٧٣)، وفي الوحـي القديم: يا بن آدم خلقتك من تراب، ثمَّ من نطفة، فلم أعي بخلقك، أو يعييني رغيف أسوقه إليك في حينه[١].

ففي قولـه تعـالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ (آل عمـران: ١٧٣)، قـال الشـيخ الطوسيّ: قيل في المعني بقوله: (الناس) الأوَّل ثلاثة أقوال: أوَّلها: قال ابن عباس، وابن إسـحاق: أنَّهم ركب دسَّهم أبو سفيان إلى المسلمين؛ ليجبِّنوهم عند منصرفهم من أُحد، لـمَّا أرادوا الرجوع إليهم، وقال السـديّ: هو أعرابيّ ضمن لـه جعل على ذلك، وقال الواقديّ هو نعيم بن مسـعود الأَشجعيّ، وهو قول أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ المعني به أبو سفيان و أصحابه، في قول أكثر المفسِّرين، وقالوا عند ذلك ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، ومعناه كافينا الله؛ اللغة، والقصَّة: وأصله من الحساب؛ لإنَّ الكفاية بحسـب الحاجة، وبحساب الحاجة، ومنه لحسـبان، وهو الظنُّ، والوكيل: الحفيظ، وقيل: هـو الولي، وأصله القيام بالتدبير، المتولِّي للـشَّيء قائم بتدبيره، والحافظ لـه يرجع إلى هـذا المعنى، ومعنى الوكيل في صفات الله المتـولِّي للقيام بتدبير خلقه؛ لأنَّه مالكهم، رحيم بهم، والوكيل في صفة غيره: إنَّما يعقد بالتوكيل[٢].

يبدو أنَّ الطوسيّ قد أشـار إلى المقصود من الناس في ثلاثة أقوال، ولم يرشح المقصود منهـم مرجحًا أن يكون التوكُّل بالأصل هو القيام بالتدبُّر، ويرى أيضًا أنَّ الوكيل هو من صفته تعالى المتولِّي للقيام في تدبير خلقه، والوكيل في صفة عزيز لا يُعْتَمَدُ إلَّا بالتوكُّل.

(١) ينظر: عدَّة الداعي ونجاح الساعي: ٩٢.
(٢) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٥١-٥٢.

ولم يخرج الزمخشريّ عمَّا ذهب إليه الطوسيّ في بيان أصناف الناس المعنيِّين في النصِّ القُرْآنيّ[1]، موضِّحًا أنَّ قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ بحسب ما قيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار[2].

ومن الاستشهادات القرآنية للتوكُّل على الله جل جلاله ما جاء في الخطاب الأخلاقيّ عند الشيخ ورَّام أيضًا، قال: وأعظم مقام موسوم بمحبَّة الله تعالى صاحب التوكُّل، ومضمون بكفاية الله ملابسة، فمَنْ يكنِ اللهُ حسبه ومكافيه ومحبُّه ومراعيه، فقد فاز فوزًا عظيمًا، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو مكذب بهذه الآية قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٩)، أي: عزيز لا يذلُّ من استجار به، ولا يضيع من لاذَ بجنابه، والتجأ إلى ذماره، وحكيم أي لا يغضي عن تدبير من يتوكَّل على تدبيره[3].

إذ أشار الشيخ ورَّام إلى أن المتوكِّل على الله جل جلاله سينال عزَّة الله جل جلاله، أي: لا يذلُّ من استجار به، وحكمته جل جلاله، أي: لا يُفضي عن توكُّله، ولا يلتفت عنه، بمعنى أنَّه سينال الخير المرصود له على وفقِ حكمة الله تعالى.

إذِ استشهدَ بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وهذا ما عنَّ للطبرسيّ في تفسير الآية المباركة، قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، معناه: ومن يسلِّم لأمر الله، ويثق به، ويرضى بفعله، وإن قلَّ عددهم؛ فإن الله تعالى ينصرهم على أعدائهم، وهو عزيز لا يغلَب، فكذلك لا يغلَب مَن

(١) ينظر: الكشَّاف: ١/ ٣٤٨-٣٤٩.
(٢) ينظر: المصدر نفسه.
(٣) ينظر: تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، تحقيق: باسم محمَّد مال الله: ١/ ٥٤٣.

توكَّل عليه، وهو حكيم يضع الأمور مواضعها على ما تقتضيه الحكمة[1].

وهو ما التفت إليه الفخر الرازيّ، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي ومَن يسلِّم أمره إلى الله، ويثق بفضله، ويعوِّل على إحسان الله، فإنَّ الله حافظه وناصره؛ لأنَّه عزيز لا يغلبه شيء، حكيم يوصِل العذاب إلى أعدائه، والرحمة والثواب إلى أوليائه[2].

المطلب الخامس: التقوى

أولًا. التقوى لغةً: هي صيانة النفس عمَّا يضرُّها، وهذا مأخوذ من المعنى اللغويّ للكلمة (و ق ي)، فإنَّها تدلُّ على دفع شيء بغيره (...) واتَّقى الله: توقَّه، أي اجعل بينك وبينه كالوقاية، قال النبيّ ﷺ: «**اتَّقوا النار ولو بشقِّ تمرة**»، وكأنَّه أراد أجعلوها (أي تمرة) وقايةً بينكم وبينها، أي النار[3].

ويرى الراغب الأصفهانيّ أنَّ التقوى: «حفظ الشيء ممَّا يؤذيه ويضرُّه، ويقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاءً، قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان: ١١)، والتقوى: جعل النفس في وقاية ممَّا يخاف هذا حقيقة ثمَّ يسمَّى الخوف تارةً تقوى، والتقوى خوفًا، بحسب تسمية مقتضى الشيء والمقتضى بمقتضاه، وصار التقوى بتعاريف الشَّرع حفظ النفس عمَّا يؤثر، وذلك بترك المحظور»[4].

نلحظ التعانق الدلاليّ بين المعنى اللغويّ والاستعمال القرآنيّ، إذ إنَّ دفع الضرِّ

(١) ينظر: مجمع البيان: ٤/ ٤٢٧.
(٢) ينظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ٧/ ٤١٥.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٤٣٠، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٨٨١، لسان العرب: ٤/ ٢٣٠٥.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٢/ ٨٨١.

والشـرِّ عـن أي شيء، بمعنـى الوقاية منـه، هذا ما عبَّر عن الاسـتعمال القـرآنيّ بوقاية النفس.

ثانيًا. التقوى اصطلاحًا: هي صيانة النفس عمَّا يَضرُّها في الآخرة، وهي الإحساس بالمسـؤولية والتعهُّـد الذي يحكم وجود الإنسـان، وذلك نتيجة لرسـوخ إيمانه في قلبه، حيث يردعه عن الفجور والذنب، ويدعو إلى العمل الصالح، ويغسـل أعمال الإنسـان من التلوُّثات[1]، وهي الكبح الداخلّي الذي يصون الإنسـان أمام طغيان الشَّـهوات[2]، زد عـلى ذلـك تمثيل الدعوة التـي يدعو الله بها عباده في أغلب آياته لممارسـة كأسـلوب تربويّ في نطاق العمل الإنسانيّ، مراقبة الله والإحساس العميق بوجوده[3].

وهذا ما نؤيِّده في كون التقوى تمثِّل المرحلة الأولى من مراحل صيانة النفس وكبحها؛ لأنَّ غياب التقوى سبيل إلى الفسق والطغيان والخروج عن محارم الله ومكارمه.

ويرى ابـن فهد الحِلِّيّ أنَّ التقوى حصنٌ منيعٌ، وكهـفٌ حريزٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ (الطلاق: ٢)[4]، مسـتفيدًا من السـياق القُرْآنِي في بلورة تعريفٍ مهمٍّ للتقوى.

ومن الاستشـهادات القرآنيَّة في الخطاب الأخلاقيّ عند الشيخ ورَّام الحِلِّيّ، ما جاء في بـاب (إطاعـة الله)، قال: في قوله تعـالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ (آل عمران ١٠٢)، قال: «أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يكفر»[5].

وما استدلَّ به الشيخ ورَّام من تعريفه للمصطلح القرآنيّ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ يكاد يكون

(١) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٣/ ١٣٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٧٢.
(٣) ينظر: من وحي القرآن: ٤/ ٢٩٥.
(٤) ينظر: عدَّة الداعي ونجاح الساعي: ٢٨٣.
(٥) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٣/ ٣٦.

بيان أكثر المفسِّرين الذين سبقوه، والذين جاؤوا بعده.

ومن استشهاداته القرآنيَّة أيضًا ما جاء في التحذير من الذنوب والمعاصي، قال الشيخ ورَّام:«واحذروا أيها الناس من الذنوب والمعاصي، ما قد نهاكم الله ﷻ عنها، وحذركموها في الكتاب الصادق، والبيان الناطق، ولا تأمنوا مكر الله وتحذيره عندما يدعوكم الشيطان اللعين إليه من عاجل الشهوات واللذَّات من هذه الدنيا، فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف ٢٠١)، فأشعِروا قلوبكم خوف الله ﷻ، وتذكَّروا بما قد وعدكم الله ﷻ مرجعكم إليه من حسن ثوابه،كما قد خوَّفكم من شديد العقاب، فإنَّه مَن خاف شيئًا حذره، ومن حذر شيئًا تركه، ولا تكونوا من الغافلين المائلين إلى زهرة الحياة الدنيا، الذين مكروا السيِّئات»[1].

فقد أشار على التدرُّج في الأعراض عن طيف الشيطان، فإنَّ التقوى باب مفتوح للتذكُّر والحذر، وهذا ما ذهب إليه الشيخ الطوسيّ من قبل، قال: «أخبر اللهُ تعالى بأنَّ الذين يتَّقون الله باجتناب معاصيه، إذا وَسْوَس إليهمَ الشيطانُ وأغراهم بمعاصيه، تذكَّروا، فعرفوا ما عليهم من العقاب بذلك، فيجتنبونه ويتركونه»[2].

وهذا ما لمحه الطبرسيّ كذلك في كون ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ هم الذين يجتنبون معاصي الله ﷻ، فحالما يمسهم طائف من الشيطان ووسوسة وغواية بمعصية أو ذنب تذكَّروا «ما عليهم من العقاب بذلك، فيجتنبونه ويتركونه، وهو معنى قول ابن عبَّاس والسديّ، وقال الحسن: يعني إذا طاف عليهم الشيطان بوساوسه، وقال سعيد بن جبير: هو الرجل الذي يغضب الغضبة فيتذكَّر فيكظم غيظه، وبه قال مجاهد، وروي عنه أيضا

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢/ ٢٠٣.
(٢) التبيان في تفسير القرآن: ٤/ ٤٦٠.

أنَّـه قال: هو الرجل يهمُّ بالذنب؛ فيذكر الله فيتركه، وقيل طائف غضب وطيف جنون، وقيل معناهما واحد»[1].

وقد استشعر ناصر مكارم الشيرازيّ عندما ينتاب المؤمن من الوساوس الشيطانيَّة، وعواقـب الأمور السـلبيَّة، قـال: «أي يتذكَّرون ما أنعم الله عليهم، ويفكِّرون في سـوء عاقبة الذنب وعذاب الآخرة، فيتَّضح لهم بذلك طريق الحقِّ»[2].

المطلب السادس: محاسبة النفس

محاسـبةُ النفـس مركَّـب إضـافيّ مؤلَّـف مـن جزئَـين، الأوَّل: محاسـبة، والثاني: النفس.

أوَّلًا. المحاسـبة لغةً: مصدر حَاسَـبَ يُحَاسـبُ، وهو مأخوذ من مـادَّة (ح س ب) الَّتي تدلُّ على العدِّ، تقول: حَسـبْت الشَّيء أحسبهَ حَسْبًا وحسبانًا، وحسابًا وحسابةً إذا عَدَدْتُه، والمعدود: محسـوب وحَسِـب أيضًا، والأخير فعل بمعنى مفعول، ومنه قولهم: ليكن عملك بحسب ذلك، أي على قدرِهِ وعدده، وحاسبته من المحاسبة[3].

ثانيًـا. المحاسـبة في الاصطلاح: قال المناويّ: المحاسـبة: هي اسـتيفاء الأعداد فيما للمـرء، أو عليـه[4]. ويبـدو أنَّ الاصطـلاح التعريفي للمحاسـبة لا يخـرج عن المعنى اللغويّ، وهو العدُّ والحساب بمعنى: ضبط الأفعال والأقوال.

وإذا مـا رحنـا إلى الجـزء الثـاني (النفـس)، فإنَّنا سـنظفر بمعـانٍ عدَّة لهـا، منها: العظمـة، والكـبر، والعـزَّة، والهمَّـة، وعـين الشَّـيء وكنهـه وجوهـره، والأنفـة،

(١) مجمع البيان: ٤/ ٣٧١.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥/ ٣٤٢.
(٣) معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون: ٢/ ٥٧٠.
(٤) التوقيف على مهمَّات التعاريف: ١٢٣.

والعين[1]، ومن تعريفات النفس اصطلاحًا: هي الجوهر البخاريّ اللَّطيف الحامل لقوَّة الحياة والحسِّ والحركة الإراديَّة[2].

أمَّا محاسبة النفس بوصفه مركَّبًا إضافيًا، فنستطيع أن نصرِّفه في ظلِّ البيانات الدلاليَّة التي وقفنا عليها في (محاسبة)، وفي (نفس) بأنَّ مراجعة الإنسان نفسه في أوقات النوم والتأمُّل والخلود إلى الراحة والسكينة، وهذا ما أشار إليه الماورديّ، قال: «لمحاسبة النفس، بجزئيه الأوَّل (محاسبة) والثاني(النفس)، نستطيع أن نعرف هنا المركَّب بوصفه مركَّبًا إضافيًّا، بأنَّه مراجعة الإنسان نفسه عندما يخلد إلى النوم ليلًا، وهذا ما نرصده في تعريف الماورديّ، قال: محاسبة النَّفس: أن يتصفَّح الإنسان في ليلهِ ما صدر من أفعال نهارهِ، فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعَه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل»[3].

ومن الاستشهادات القرآنيَّة في الخطابات الأخلاقيَّة عند علماء الحِلَّة، ما جاء في خطاب ابن طاووس الأخلاقيّ في آخر باب (محاسبة النفس)، قال: «وهذا آخر ما أوردناه من ذكر هذه الأبواب ممَّا يقتضي الاستظهار للسلامة من العقاب والعتاب في يوم الحساب، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر:١٧-١٨)»[4].

يبدو من نصِّ ابن طاووس أنَّه يشير إلى أنَّ محاسبة النفس، ومراقبتها، أمارة راسخة،

(١) ينظر: الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة: ٣/ ٩٨٤، معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٤٦٠، لسان العرب: ٦/ ٢٣٣-٢٣٧.
(٢) التعريفات: ٢٦٢.
(٣) أدب الدنيا والدين: ٣٤٢.
(٤) محاسبة الملائكة الكرام آخر كلِّ يوم من الذنوب والآثام أو محاسبة النفس: ٣٨٢.

وعلامة متينة في الظفر بالأمان، ونيل السلامة، ودفع الآثام والعقاب.

واستشعر الطوسيّ قضيَّة الانتفاع بالعقل، وإعماله على وَجْهٍ صحيح، على وفق أحكام الله ﷻ، واتِّباع أوامره في ظلِّ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾، ولم يخرج الطبرسيّ عمَّا جاء به كون التفسير المراد في النصِّ هو اتِّباع أحسن ما يؤمَرون به، ويتَّبعون الطاعة التي هي أحسن، إذ يستحقُّ الثواب عليه أكثر، وهذا الأمر له علاقة وُثْقى بمحاسبة النفس ومراجعتها»[1].

وحدَّد الطاهرُ بنُ عاشورِ الضوابط التي يُمْكن استجلاؤها من الانتفاع بالقول الحسن، منها: الدعوة إلى الحقِّ، وإعمال النقد المميَّز بين الهدى والضَّلال، والحكمة والأوهام، وشرف النظر والاستدلال للتَّفرقة بين الحقِّ والباطل، والتَّفرقة بين الصواب والخطأ، والاستدلال في شرائع الإسلام، وأدراك دلائل ذلك[2].

ومن الاستشهادات القرآنيَّة في الخطابات الأخلاقيَّة، ما جاء في كتاب عدَّة الداعي ونجاح الساعي، في باب (هداة النفس)، قال: «واعلم أنَّك لن تبلغ ذلك إلَّا بالمجاهدة لنفسك الأمَّارة؛ فإنَّها أضرُّ الأعداء، كثيرة البلاء، مرمية في المهالك، كثيرة الشهوات، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٣٧-٤١) (...) وإيَّاك أن تغفل عنها طرفة عين؛ فإنَّها كما قال خالقها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ (يوسف: ٥٣)، وكفى بهذا تنبيهًا لمن عَقِل، فألجمها بالتقوى، وقدها بزمام الرجاء، وساقها بسوط الخوف»[3].

(١) مجمع البيان: ٨/ ٣٤٧.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢/ ٣٠٩-٣١٠.
(٣) عدَّة الداعي ونجاح الساعي: ٣٢٠-٣٢١.

مضمـون قول ابنِ فَهْدٍ الحِـلِّيّ أنَّ مجاهدة النفس في ظلِّ مراقبة النفس الأمَّارة؛ فإنَّها أخطر الأعداء، منها ينال الإنسـان الجحيم والبعد عن الجنَّة، فلا بدَّ من محاسـبتها ونفي الإغفال عنها.

وهـو قول الزمخـشريّ مِن قبلُ أيضًـا، إذ يـرى «أنَّ نَهي النفس عـن الهوى، يعني كسرهـا عـن اتِّباع الشـهوات، وزجرها عنـه، وضبطهـا بالصبر، والتوطـين على إيثار الخير»[1].

ويـرى القرطبـيّ (ت٦٧١هـ) «أنَّ الآيـة عامَّـة في كلِّ كافر أثر الحيلـة الدنيا على الآخرة، ولم يراقب نفسه ويحاسبها»[2].

ويظهر من كلمات الطاهر بن عاشـورٍ الترتُّب الطبيعيّ المنطقيّ الذي تنبَّه عليه ابن فَهـدٍ في كـون إيثار الحياة الدنيا طغيانًا وتجاوزًا، سـبب رئيـس في الوقوع في المحرَّمات، ومـن ثمَّ نيـل العاقبة السـيِّئة، مغرقًابين الأخـذ بخطوط الدنيـا عبادةً وتقرُّبًـا إلى الله، هـو تقـرُّب محمود، وبين الأخذ بخطوط الدنيا طغيانًا وفسـادًا، فإنَّـه تقرُّب غير محمود (مذموم)[3].

(١) الكشَّاف: ٧/ ٢٣٠-٢٣١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ١٨٠-١٨١.
(٣) التحرير والتنوير: ٢/ ٨٥.

المبحث الثاني

الرذائل

سنحاول في هذا المبحث أن نتحدَّث عن أهمِّ الرذائل التي تمثِّل مفاهيم أخلاقيَّة سلبيَّة، وسنرتِّبها بحسب الحروف الهجائيَّة.

المطلب الأوَّل: الرياء

أوَّلًا. الرياء لغةً: الرياء مصدر مادَّته: «ر أ ي»، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإرائهم خصال الخير، فهو بمعنى: إظهار العمل الصالح بقصد أن يكون من أجل الناس، قال ابن منظور: «قال أبو منصور: وأمَّا قول الله ﷻ: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ (النساء: ١٤٢)، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ (الماعون: ٦-٧)؛ فليس من المشاورة، ولكن معناه إذا أبصرهم الناس صلُّوا، وإذا لم يروهم تركوا الصلاة، ومن هذا قول الله ﷻ: بطرًا ورئاء الناس، وهو المرائي، كأنَّه يُرِي الناس أنَّه يفعل، ولا يفعل بالنيَّة، وأرأي الرجل إذا أظهر عملًا صالحًا رياءً وسمعةً»[1]، ويُقال: فلان يتراءى، أي: ينظر إلى وجهه في المرآة، وفي السَّيف، فهو أن يُظهِر الإنسانُ مِن نفسه خلافَ ما هو عليه؛ ليراه الناس[2].

نستجلي فيما تقدَّم أنَّ الرياء هو إظهار الأعمال فخرًا وسمعةً، وفي النيَّة خلافُ ذلك.

(١) لسان العرب: ٦/ ٦٨، حرف الراء (رأي).

(٢) ينظر، لسان العرب: ٤/ ٢٩١، ومعجم لغة الفقهاء: ١/ ٢٢٨.

ثانيًا. الرياء اصطلاحًا: تزيين العمل الذي يبتغي به وجه الله تعالى، ابتغاء مدح الناس وثنائهم، والمنزلة في صدروهم، أو تحصيل حظٍّ من دنياهم، وتحصيل ما يطمع به الناس، والسمعة رياء؛ لكنَّها تختصُّ بالمنطوقات والمسموعات، كتحسين القراءة والوعظ والتدريس؛ من أجل رياء الناس، ومنه التحدُّث عن عمل عمله سرًّا، ومضى من أجل ذلك، والرياء يكون في الأفعال، والسمعة تكون في الأقوال، وهو يحبط العمل إذا كان هو الحامل للعبد على العمل، أو اجتمع فيه قصد وجه الله مع إرادة مراءاة الناس[1].

وهو طلب المنزلة في قلوب الناس، بأن يُظهِر خصال معيَّنة يظهرها للناس من قولٍ أو فعلٍ، ولا يكون مراده ثواب الله أصلًا، كالذي يصلِّي بين الناس حتَّى يشاهدوه[2].

ثالثًا. الرياء شرعًا: هو إظهارُ العبادة؛ لقصْد رؤية الناس لها، فيحمدوا صاحبَها[3]، وأصل الرياء، كما يقول الغزَّاليّ: «طلب المنزِلة في قلوب الناس بإيرائِهم خِصالَ الخير، فهو إرادةُ العباد بطاعة الله[4]، ولـمَّا كان الرياء بهذه الخطورة العظيمة مِن الاستشراء في قلوب العباد، والجَرَيان في عروقهم، ينبغي تبيُّن حكمه، وكشْف مزالقه على العبْد؛ ليكونَ على بيِّنةٍ مِن دِينه، وما يقوم به مِن الأعمال؛ حتَّى إذا لقِيَ الله؛ لقيَه بعملٍ لا شائبةَ فيه.

ومن الاستشهادات القرآنيَّة التي ندَّت من الخطابات الأخلاقيَّة لعلماء الحِلَّة، ما جاء في (ذمِّ الرياء) في كتاب تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، قال الشيخ ورَّام الحِلِّيّ:

(١) ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد: ١٧١.
(٢) ينظر: موسوعة الآداب والأخلاق الإسلاميَّة: ٢٠٣.
(٣) ينظر: فتح الباري: ١٨/ ٣٣٦.
(٤) ينظر: إحياء علوم الدين: ٢/ ٤٨٣.

«وأعلم أنَّ الرياء حرام، وأنَّ المرائي عند الله ممقوت، وقد شهد بذلك الآيات والأخبار، كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون: ٤-٧)»[١].

يبدو من نصِّ الشيخ ورَّام التأكيد على أنَّ الرياء حرامٌ، وأنَّ المرائي مذموم عند الله، فهو فاجرٌ وغادر ومرائي، لأن يُبْدي للناس حُسْنَ الظاهر، ويُفضي في الخفاء والسرِّ سُوء الأعمال، يتقرَّب إلى العباد، ويتباعد عن الله ﷻ.

وهذا ما التفت إليه الطوسيّ، من قبل، في ضوء تفسيره قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، قال: «تهديد لمن يصلِّي على وجه الرياء والسمعة، إنَّما أطلق مع أنَّه رأس آية يقتضي تمام الجملة، لأنَّه معرَّف بما يدلُّ على أنَّه أراد مَن يصلِّي على جهة الرياء والنفاق، ثمَّ بيَّن ذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قال ابن عبَّاس ومسروق: معناه يؤخرِّونها عن وقتها، وقال قتادة: معناه غافلون، وقال مجاهد: لاهون كأنَّهم يسهون للهوهم عنها، واللهو يوجِب تأخيرها عن وقتها؛ لأنَّه قال عن صلاتهم، وقيل: ساهون فيها ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، معناه أنَّهم يراؤن بصلاتهم الناس دون أن يتقرَّبوا بها إلى الله، وإنَّما ذمَّ السهو في الصلاة، مع أنَّه ليس من فعل العبد، بل هو من فعل الله؛ لأنَّ الذمَّ توجَّه في الحقيقة على التعرُّض للسهو بدخوله فيها وجه الرياء، وقلبه مشغول بغيرها، لا يرى لها منزلة تقتضي صرف الهمِّ إليها»[٢].

وأشار الطباطبائيّ إلى صفات المرائين في ظلِّ استنطاق النصِّ القرآنيّ، قال: «قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي غافلون لا يهتمُّون بها، ولا يبالون أن تفوتهم بالكليَّة، أو في بعض الأوقات، أو تتأخَّر عن وقت فضيلتها،

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ١/ ٤٧٦.
(٢) التبيان في تفسير القرآن: ١٠/ ٣٩٦، وينظر، مجمع البيان: ١٠/ ٤٠٩.

وهكـذا في الآية تطبيق من يكذِّب بالدين على هؤلاء المصلِّين لمكان فاء التفريع، ودلالة عـلى أنَّهـم لا يخلون من نفـاق؛ لأنَّهم يكذبون بالديـن عملًا وهم يتظاهـرون بالإيمان، قولـه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾، أي يأتون بالعبادات لمـراءاة الناس، فهم يعملون للناس، لا لله تعالى»[1].

ومن الاستشـهادات القرآنيَّة في مطلب الرياء، ما جـاء في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن فهد الحِلِّيّ في فصل الرياء ومعالجته، قال: «وينبغي أن يذكر شـدَّة حاجته وقوَّة فاقته يـوم القيامة إلى ثواب أعماله، فإنَّه، قوله تعـالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ (الشـعراء ٨٨-٨٩) (...)، ويشـتغل فيه الصدِّيقون بأنفسهم، ويقول كلُّ واحـدٍ: نفسي نفـسي، فضلًا عن غيرهم، فـلا ينبغي أن يصحب معـه غير الخالص من العمل، فكما أنَّ المسافر إلى البلد البعيد المشفق، لا يصحب معه إلَّا خالص الذهب؛ طلبًا للخفَّـة، وكثرة الانتفاع به عند الحاجة إليه، ولا حاجة أعظم من فاقة القيامة، ولا عمل أنفع من الخالص لله، فهو أنفس الذخائر وأحفظها»[2].

نَلْمَـحُ مَـن نصِّ ابن فَهـدٍ الحِلِّيّ أنَّ الأعـمال يجب أن تكون خالصـة لله ﷻ، فالمرء يصحبُ معه أعماله التي يريدُ بها وجه الله ﷻ، لا رياءً وسمعةً من أجل الناس.

وهذا التصوُّر انتبه عليه الطبرسيّ، من قبل، في فَهْم قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، أي: من الشِّـرك، والشكِّ، ومن الفسـاد، والمعاصي، وإنَّما خصَّ القلب بالسلامة؛ لأنَّه إذا سـلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد، من حيث أنَّ الفساد بالجارحة لا يكون إلَّا عن قصد بالقلب الفاسد، وروي عن الصادق عليه السلام أنَّه قال: **هو القلب الذي سلمَ من حبِّ الدنيا**»[3].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٢٠٩.
(٢) عدَّة الداعي ونجاح الساعي: ٢٢٩.
(٣) مجمع البيان: ٧/ ٣٠٤.

المطلب الثاني: التَّبذير

أوَّلًا. التبذير لغةً: التفريق، وأصله إلقاء البذر وطرحه، فاستعير لكلِّ مُضَيِّع لماله[١]، وبذر ماله: أفسده وأنفقه في السَّرف، وكلُّ ما فرَّقته وأفسدته، فقد بذرته، والمباذر والمبذر: المسرف في النفقة؛ باذر وبذر مباذرةً وتبذيرًا[٢]، ولا يخفى أنَّ المعنى اللغويّ يؤكِّد على الإتلاف والتفريق والإفساد.

ثانيًا. التبذير اصطلاحًا: هو إنفاق المال في غير حقِّه[٣]، وقيل: التبذير صرف الشيء فيما لا ينبغي[٤]، وقيل: هو تفريق المال على وجه الإسراف[٥]، وهو البذل حيث ينبغي الإمساك، وهو مجاوزة الحدِّ، وهو مذموم[٦].

ويبدو أنَّ الشريف الجرجانيّ قد فرَّق بين التبذير والإسراف، إذ يرى أنَّ التبذير هو تفريق (المال)، سواءٌ أكان مالًا، أم طعامًا، أم عينًا يُفاد منها، على وجه مجاوزة الحدِّ في كلِّ ما يفعله الإنسان[٧]، وهو أعظم من الإسراف.

وبعبارة أخرى: الإسراف تجاوز الحدِّ والخطِّ في صرف المال، والتبذير أتلافهُ في غير موضعه، وهو أعظم من الإسراف ولذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧)[٨].

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١١٤.
(٢) ينظر: لسان العرب: ٩/ ١٤٨.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٤٧.
(٤) ينظر: التعريفات: ٢٤، الكليَّات: ١١٣.
(٥) ينظر التعريفات: ٥١، وينظر: التوقيف على مهمَّات التعاريف: ٩٠.
(٦) ينظر: موسوعة الآداب والأخلاق الإسلاميَّة: ٣٤٢.
(٧) ينظر: التعريفات: ٢٤.
(٨) ينظر: معجم الفروق اللغويَّة: ٣٤٥.

ومن الاستشهادات القرآنيَّة في هذه الرذيلة الأخلاقيَّة، ما جاء في خطاب ابن فَهْدٍ الأخلاقيّ، قال: «ثمَّ اعمل فيما يحصل لك من الكسب على قانون السنَّة والكتاب، وإيَّاك والتبذير، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧)»[١].

وقد بَصُر الزمخشريّ بدلالة التبذير، إذ يرى تفريق المال فيما لا ينبغي، وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهليَّة تنحر إبلها وتتياسر عليها، وتبذِّر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله بالنفقة في وجوهها، ممَّا يقرِّب منه ويزلف (...). وعن عبد الله بن عمرو: مرَّ رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضَّأ، فقال: «**ما هذا السَّرف يا سعد؟** قال: أو في الوضوء سَرَف؟ قال: **نعم وإن كنت على نهرٍ جارٍ**»[٢].

وقد تنبَّه الطاهر بن عاشور إلى النتيجة السلبيَّة التي تترشَّح من المبذِّر، والصفة التي يتَّسم عليها المبذِّر، قال: «التبذير يدعو إليه الشيطان؛ لأنَّه إمَّا إنفاق في الفساد، وإمَّا إسراف يستنزف المال، واللذَّات، فيعطَّل الإنفاق في الخير، وكلُّ ذلك يُرضي الشيطان»[٣].

وأشار ناصر مكارم الشيرازيّ إلى نكتة تشبيه المبذِّرين بإخوان الشياطين، قال: «المبذِّرين إخوان الشياطين، فذلك لأنَّهم كفروا بنعم الله، إذ وضعوها في غير مواضعها. ثمّ إنَّ استخدام (إخوان) تعني أنَّ أعمالهم مُتطابقة ومتناسقة مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالهما مُتشابهة، أو أنَّهم قرناء وجلساء للشيطان في

(١) عدَّة الدَّاعي ونجاح الساعي: ٨٠.
(٢) الكشَّاف: ٣/ ٤٣٦.
(٣) التحرير والتنوير: ٨/ ٢١٦-٢١٧.

الجحيم»[1].

ويظهر أنَّ الشيرازيّ قد فطن للعلاقة التشبيهيَّة بين المبذِّرين، والشياطين، كِلاهما متجاوزان الحدّ، وخارجان عن القانون الطبيعيّ المنطقيّ.

المطلب الثالث: حُبُّ الدنيا

إنَّ حُبّ الدنيا هي الوسيلةُ المؤثِّرة التي يوظِّفها الشيطانُ لإيقاع بني آدم في شَرَكه؛ وذلك بتزيينها لهم، وقد حذَّرنا القرآن الكريم من الدنيا وما فيها كثيرًا، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)[2]، فالدنيا القريبةُ الأجل؛ أي: إنهَّا قصيرةُ الأمد، ستنتهي بسرعة، أو إنَّها قريبة منَّا قربًا مكانيًّا؛ على أساس أنَّنا نعيش فيها وعلى أرضها، أو إنَّها قريبةٌ في متناول اليد، أو هي واطئة المكانة (دنيَّة) أو (دنيئة)؛ بمعنى حقيرة خسيسة، لا قيمة لها، وأيًّا كان المعنى، فالأمرُ واضحٌ فيها وجَلِيّ، فهي أمد وليس أبدًا، نحن نعيشُها لنقدِّم ما نستطيع وصولًا إلى الحياة (الآخرة)؛ التي هي أبديَّة، وإنَّ أحقَّ ما قيل في وصف هذه الحياة الدنيا، هو قول بديعها[3] الله جلّ جلاله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ٣٢).

إنَّ هذا الحُبَّ قد فاق حُبَّهم للنعيم المقيم الذي في الآخرة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (النحل: ١٠٧).

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٨/ ٤٣٥.
(٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ١/ ١٣٢٥.
(٣) بديعها: خالقها من العدم.

ومـن الاستشـهادات القرآنيّة التي نـدّت في الخطاب الأخلاقيّ عند الشـيخ ورّام الحـلّيّ، ما جاء في باب (حُـبُّ الدنيا)، قال:«اعلمْ أن الخلق في ذلك يتفاوتون فمنهم مَنْ يأمل البقاء ويشـتهي ذلك أبدًا قال الله تعالى: (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَـنَةٍ) ومنهم مَنْ يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حبًّا شديدًا (...) ومنهم مَنْ يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءه ولا يقدر لنفسه وجودًا في عام قابل، ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فإذا جمع ما يكفيه لسـنته اشـتغل بالعبادة، ومنهم مَنْ يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يسـتعد إلا لنهاره وأما الغد، فلا»[1].

ينطلق الشـيخ ورّام في اسـتظهار المتلبّسين في حُبّ الدنيا في عرض أحوالهم، وبيان مراتبهـم، منهـم مَنْ يأمـل البقاء ويشـتهي ذلك أبـدًا، ومنهم من يحل البقـاء إلى الهرم وهو(أقـصى العمر)، ومنهم من يحل إلى سـنة واحدة، ومنهم إلى شـهر، ومنهم إلى يوم وليلة.

ويتحصّل من قول الشـيخ الطّوسيّ أنّه جَعَـل المخصوصين بالخطاب القرآنيّ وهم اليهود، الذين أحبوا الدنيا حبًّا جمًا، وتأويل الآية: (وما طول العمر بمبعد من عذاب الله ولا منجه منه، لأن لا بدّ للعمر من الفناء فيصير إلى الله تعالى) [2].

وتَيَقّنَ الطاهرُ بنُ عاشورٍ على حرص هؤلاء على الخلود في الدنيا، وتعلّقهم الشديد بهـا، وأن دلالة الفعل(يَوَدّ) بيانٌ راسـخ وواضـحٌ لرغبتهم على الحيـاة وتحقيق النوعيّة المرادة في هذه الحياة، وأنهم لم يبلغوها مبلغ الطمع فيها [3].

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢/ ٢٤-٢٥.
(٢) التبيان في تفسير القرآن: ١/ ٣٥٧.
(٣) ينظر، التحرير والتنوير: ١/ ٣٩٣.

ومن الآيات التي استشهد بها الشيخ ورَّام الحِلِّيّ في باب حُبُّ الدنيا: «ما جاء في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ١-٢)، قيل: ما زالوا يتباهون بالكثرة والعزَّة حتَّى صاروا من أهل القبور»[١].

يؤيِّد الشيخ ورَّام أنَّ التباهي يكون في الكثرة، والعزَّة، وهو زائل؛ لأنَّ مصيرهم إلى القبور.

ويرى الشيخُ الطوسيّ أنَّ الإلهاء «هو الصَّرف إلى اللهو، وهو الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى، والتباهي يكون بكثرة المناقب، وكثرة المال والعدد»[٢].

واستشعر الزمخشريّ الدلالات القرآنيَّة في النصِّ المبارك، قال: «ألهاه عن كذا وأقهاه: إذا شغله، و(التكاثر) التباري في الكثرة، والتباهي بها، وأن يقول هؤلاء: نحن أكثر، وهؤلاء: نحن أكثر، منفقين أعماركم في طلب الدنيا، والاستباق إليها، والتهالك عليها»[٣].

المطلب الرابع: اتِّباعُ الهوى

أوَّلًا. الهوى لغةً: الهوى هو ميل النفس إلى الشَّهْوة، وقيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يهوي بصاحبه إلى خوالق الشيء، ومهاوي الرذائل[٤].

وقال ابنُ منظورٍ: «الهَوى مقصور: هَوَى النَّفْس، وإذا أَضفته إليك قلت هَوايَ، والهَوى: العِشْق يكون في مداخل الخير والشَّرِّ، والهَوِيُّ: المَهْوِيُّ، وهَوى النفسِ:

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٣/ ٢٢٥-٢٢٦.
(٢) التبيان في تفسير القرآن: ١٠/ ٣٨٣.
(٣) الكشَّاف: ٧/ ٣٢١.
(٤) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ١/ ١٥٤٣.

إرادتها والجمع الأَهْواء»[1]. نَلْمَحُ في ظلِّ ابن منظور الدلالة الرئيسة للهوى، وهي محبَّة الإنسان الشيء، والغلبة على النفسه، ويرى ابن القيِّم الجوزيَّة أنَّ الهوى: «ميلُ النفس إلى الشيء، وفعله هَوِيَ يَهْوَى، هوًى مثل عَمِيَ يَعْمَى عمًى، وأما هَوَى يهوي بالفتح فهو السقوط، ومصدره الهوي بالضمِّ، ويُقال: الهوى أيضًا على نفس المحبوب، ويقال: هذا هوى فلان، وفلانة هواه أي: مهويَّته ومحبوبته، وأكثر ما يستعمل في الحُبِّ المذموم (...)، وقد يُستعمل في الحبِّ الممدوح استعمالًا مقيَّدًا»[2].

ويبدو أنَّ ابن القيم قد أفاد من الفعلَين (هَوَى، هَوِيَ) في رَصْد دلالة العشق للشيء، والميل له، عشقًا وميلًا مذمومَين.

ثانيًا. الهوى في الاصطلاح: هو ميلان النفس إلى ما تستلذُّه من الشهوات من غير داعية الشَّرِّ[3]. وقال الحراليّ: «نزوع النفس لسفل شهواتها في مقابلة معتلي الروح المنبعث انبساطه»[4].

وعرَّف الهاشميّ الهوى، بأنَّه: «الميل والحبُّ والتعلُّق بالشهوة التي تؤدِّي بالإنسان إلى الهلاك»[5].

وقَدْ ذُمَّ الهوى في القرآن الكريم، وحُذِّر الإنسان، مَن اتِّباع الهوى، وأُمِرَ بالعدل واجتناب الهوى في الحكم، وإنَّ منبع الهوى يُطِبْعُ هواه، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٣)[6].

(١) لسان العرب: ١٥/ ٣٧١.
(٢) روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين: ٢٢-٢٣.
(٣) التعريفات: ١/ ٣٢٠.
(٤) التوقيف على مهمَّات التعاريف: ١/ ٧٤٤.
(٥) موسوعة الآداب والأخلاق: ٦٧٨.
(٦) تفسير ابن كثير، ج٢، ص٤٣٣.

ومـن الاستشـهادات القرآنيَّـة التي وقفنا عليهـا في الخطاب الأخلاقـيّ الحِلِّيّ، ما جـاء في خطاب الشـيخ ورَّام الأخلاقيّ، قال في باب مجامع الهـوى: «فانظر إلى قول الله تعـالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعـات: ٤٠-٤١) ومجامع الهوى خمسـة أمور وهي مـا جمعه الله تعالى في قولـه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ (الحديد: ٢٠)، فهذه بيَّنها الله تعالى أنَّها للدنيا، والذي هو لله تعالى، فهو قدر الضرورة، وما لا بدَّ منه من مسكن وملبس ومطعم ومشرب، والحزم في الحذر والتقوى، وأخذ هذه الأسـباب بقدر الحاجة اقتداءً بالأنبياء والأولياء، إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حدِّ الضرورة»[1].

إذ اسْـتَجمَع الشـيخُ ورَّام جامـع الهوى في ضوء تفسـير القُرْآن بالقُـرْآن، إذ عاين النصَّ القُـرْآنيّ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ (الحديد: ٢٠).

ويرى الشـيخ الطوسيّ أنَّ الدنيا لا بقاء لها، ولا دوام، فاللعب واللهو زائلان، وأنَّ التفاخر مصيره الزوال والاندراس[2].

ويتجـلَّى العرض البيانيّ عند الزمخـشريّ، في ضوء التصوُّر البيانيّ لحال الدنيا، قال: «وشبَّه حال الدنيا وسـرعة تقضِّيها مع قلَّة جدواها بنبات أنبته الغيث، فاستوى واكتهل وأُعجِـب به الكفَّار الجاحدون لنعمـة الله فيما رزقهم من الغيـث والنبات، فبعث عليه العاهـة، فهاج واصفرَّ وصـار حطامًا؛ عقوبـةً لهم على جحودهم، كـما فعل بأصحاب الجنَّة، وصاحب الجنَّتَين»[3].

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ١/ ٤١٧.
(٢) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ٥١٦، ومجمع البيان: ٩/ ٣٥٨.
(٣) ينظر: الكشَّاف: ٦/ ٥٠٠.

وأفاد ابنُ عاشورٍ من الدلالة الصَّرفيَّة لصيغة (التكاثر) صيغة (تَفَاعُل)، فهي للمبالغة في الانكباب على الفعل، والمبالغة في الحصول عليه، فالمتكاثر ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة الشيء، فإنَّه يكون الأكثر منه عنده، فكان المرء ينظر في الكثرة من الأمر المحبوب إلى امرىء آخر له الكثرة منه، ثمَّ شاع إطلاق صيغة التكاثر، فصارت تُستعمَل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة مغالبة الغير ممَّن حصل عليه[1].

المطلب الخامس: الظلم

أوَّلًا. الظلم لغةً: الظلم ضدُّ العدل، قال ابن فارس:«الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضياء والنور، والآخر: وضع الشيء غير موضعه تعدِّيًا»[2].

ويظهر أنَّ الأصلان اللذَين ذكرهما ابن فارس يؤدِّيان الدلالة المراد من الظلم، ضد الظاء والنون، ووضع الشيء في غير موضعه، وانصرافه عن جادَّة الحقِّ والصواب.

ثانيًا. الظلم في الاصطلاح: هو التصرُّف في حقِّ الغير بغير حقٍّ، أو مجاوزة الحقِّ[3]، وقيل: الظلم عبارة عن التعدِّي عن الحقِّ إلى الباطل، وهو الجَور[4]، وقيل: وضع الشيء بغير محلِّه بنقصٍ أو زيادةٍ أو عدولٍ عن زمنه[5]، وقيل:

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١١/ ٤٠٩-٤١٠.
(٢) معجم مقاييس اللغة: ٣/ ٤٦٨-٤٦٩.
(٣) ينظر: جامع العلوم والحكم: ٢١١.
(٤) ينظر: التعريفات: ٤٨.
(٥) ينظر: التوقيف على مهمَّات التعاريف: ٢٣١.

الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والتصرُّف في حقِّ الغير، ومجاوزة حدِّ الشارع[1].

وقد فرَّق العلماء بين الظلم والجور؛ فالجور خلاف الاستقامة في الحكم، وفي السيرة السلطانيَّة تقول: جار الحاكم في حكمه، والسلطان في سيرته؛ إذا فارق الاستقامة في ذلك، والظلم ضرر لا يستحق ولا يعقب عوضًا سواء كان من سلطان، أو حاكم أو غيرهما، ألا ترى أن خيانة الدانق والدرهم تسمَّى ظلمًا، ولا تسمَّى جورًا، فإن أخذ ذلك على وجه القهر أو الميل سُمِّي جورًا، وهذا واضح، وأصل الظلم نقصان الحقِّ، والجور العدول عن الحقِّ، من قولنا: جار عن الطريق إذا عدل عنه، وخلف بين النقيضَين فقيل في نقيض الظلم الأنصاف، وهو إعطاء الحقِّ على التمام، وفي نقيض الجَور العدل، وهو العدول بالفعل إلى الحقِّ[2].

وقد وَرَدَ ذَمُّ الظلم في القرآن الكريم، متوعِّدًا الله تعالى الظالمين، واصفًا المعاصي بالظلم أيضًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ (الطلاق: ١).

ومن الاستشهادات القرآنيَّة في هذا المطلب، ما جاء في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الشيخ ورَّام: «إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصالحين، فريضة عظيمة، بها تُقام الفرائض، وتأمين المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردُّ المظالم، وتعمر الأرض، وتنتصف بها الأعداء، ويستقم الأمر، فأنكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكُّوا بها جباههم، ولا تخافوا بالله لومة لائم، فإن اتَّعظوا وإلى الحق رجعوا، فلا سبيل عليهم: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) ينظر: الكليَّات: ٥٩٤، وينظر: موسوعة الآداب والأخلاق الإسلاميَّة: ٦٩٤.
(٢) ينظر: معجم الفروق اللغويَّة: ٣٨٥.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٤٢)، فهنالك فجاهدوهم بأبدانهم، وأبغضوهم بقلوبكم، غير طالبين سلطانًا، ولا باغين مالًا، ولا مريدين بالظلم غفرًا، حتَّى يفيئوا إلى أمر الله، ويمضوا على طاعته»[1].

إذ ترسَّم الشيخ ورَّام حقيقة أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل لمنع الظلم، وإحقاق العدل، والسير على نَهْج سبيل الأنبياء والرسل والأئمَّة والمصلحين.

ويرى الطوسيّ «أنَّ الإثم والعقاب واقعان على كلِّ من ظلَمَ الناس ابتدءًا[2].

وحكم هذه الآية يشمل ظُلم المشركين للمسلمين، ويشمل ظلم المسلمين بعضهم بعضًا؛ ليتناسب مضمونها مع الجميع»[3].

ومن الاستشهادات القرآنيَّة في هذا المطلب، ما رَصَدْناه في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس، قال في وصيَّة لابنه: «واعلم يا ولدي محمَّد أنَّ الله جَلَّ جَلالُه لو حملنا على عدله ساعة دون ساعة، من ليل أو نهار، ما أبقانا أبدًا، وكان أمرنا قد آل إلى الهلاك والدمار، لأنَّنا لا نوفيه حقَّه أبدًا، في اطِّلاعه علينا، وحضورنا بين يديه بمقدار التفاوت بين عظمته وجلالته، وبين ما نعمله من اطِّلاع غيره علينا، أو حضورنا بين يدَي غيره من مماليكه الفقراء إليه، ولا نبذل الجهد في زيادة تعظيمه عليهم، وربَّما اشتغلنا بهم عنه، وجعلنا ظهر لسان حالنا إليه، ووجهنا إليهم، فلو سلبنا نفوسنا، وكلّ ما أحسن به إلينا، وقطع خبزنا وكسوتنا، وحبسنا في مطمورة الغضب علينا، كنَّا والله لذلك مستحقِّين، فكيف

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢/ ٣٩٧-٣٩٨.
(٢) مجمع البيان: ٩/ ٥١.
(٣) التحرير والتنوير: ١٣/ ١٤٦.

حملنا قوَّتنا التي هي منه، وعقولنا الموهوبة عنه؟ حتَّى صرنا نقدم أن تكون بحرمته مستخفِّين، ولمؤاخذته متعرضِين، فإيَّاك ثمَّ إيَّاك أن تهون بذلك كما يفعله الجاهلون به والغافلون، ولا تتأسَّى بهم فإنَّه جل جلاله يقول: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الزخرف:٣٩)»[1].

ويبدو أنَّ ابن طاووس قد عَمَل آليَّة الحِجَاج من أجل الوصول إلى دلالة المراد، والفَهْم السريع، فالله بعد أن خلق الإنسان، وهيَّأ له شؤون الحياة كلَّها، كان عليه أن يعدل ويسير بين الناس بسيرة محمودة، وسلوك معقول، لا أن يكون مستخفًّا بحرم الله جل جلاله.

وهذا التعليل والحِجَاج التفت إليه الطباطبائيّ فيما بعد، قال: «إذ ظلمتم واقع موقع التعليل»[2].

ومن الاستشهادات القرآنيَّة التي وقفنا عليها في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، ما جاء في وصيَّة ابن طاووس لابنه في شكر المنعم؛ لأنَّ نَعِمَه لا تُعدُّ ولا تُحْصَى، قال: «فإن كان وقت بلوغك إلى خلع شرف الألباب وتحف الآداب ما هو زمان شاغل من الفرائض والنوافل الظاهرة، فابدأ بذِكر ما عمل معك من النِّعم السالفة والحاضرة، فإنِّي أذكر لك منها جملة عرَّفني بها جل جلاله بلسان حال عنايته الباهرة، فتذكَّر يا ولدي جمَّلك الله بتذكيره لك، وعنايته بك أنَّه جل جلاله في المعنى خدمك، وله المثل الأعلى بشرفك بمعرفته، وقبل أن يتحفك بالسعادة بخدمته بأن بنى لك السماوات والأرَضين بيدِ قدرته، ولم يتَّكل إكرامه لك بذلك إلى ملائكته، ولا بأحد من بريَّته، وأجرى لك البحار، وشقَّ الأنهار، وغرس الأشجار، وأخرج الثمار، وعمَّر الديار، وجعل الشمس والقمر سراجًا

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٥٣-١٥٤.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/ ٥٤.

لليل والنهار: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ (إبراهيم: ٣٤)»[١].

المعنى المستفاد من النصِّ القُرْآنيّ هو أنَّ الإنسان على الرغم من النِّعم التي خلقها الله له، إلَّا أنَّه ظلم لنفسه وغيره، كفور لنِعَم الله، غير مؤدٍّ لشُكرها[٢].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٤.

(٢) التبيان في تفسير القرآن: ٦/ ٢٩٤.

خاتمة البحث ونتائجه

نحمد العليّ القدير أن أوصلنا إلى نهاية هذا البحث الموسوم بـ(المفاهيم الأخلاقيَّة في الخطاب الأخلاقيّ عند علماء الحِلَّة- قراءة تحليليَّة)، ولا بدَّ لكلِّ عملٍ من نتائج واستخلاصات مهمَّة، من ذلك:

الأولى: تبيَّن لنا أنَّ الخطاب الأخلاقيّ عند علماء الحِلَّة كان يمور بمفاهيم أخلاقيَّة عالية المضمون، عظيمة الجوهر، وإنَّ الابراق فيها أمرٌ مهمٌّ؛ لما لها من آثار تربويَّة واجتماعيَّة في المتلقِّي.

الثانية: ظهر لنا أنَّ المدرسة الحِلِّيَّة قد أسهمت إسهامًا كبيرًا في التصنيف والتأليف في الكتب الأخلاقيَّة، ولاسيما كتاب تنزيه النواظر للشيخ ورَّام الحِلِّيّ، وكتاب المحجَّة لثمرة المهجة للسيِّد عليّ بن طاووس، وعدَّة الداعي لابن فهد الحِلِّيّ، وغيرها.

الثالثة: نلحظ في ظِلال الوقوف على الخطابات الأخلاقيَّة الحِلِّيَّة أنَّها ذات فعَّاليَّة استشهاديَّة بنصوص القرآن الكريم؛ لما يمثِّله كتاب الله تعالى من منظومة أخلاقيَّة وتربويَّة معجزة؛ لذلك توافر علماء الحِلَّة على تقنيَّة الاستشهاد القرآنيّ في خطاباتهم.

الرابعة: تلمَّسنا في ضوء الوقوف على الخطابات الأخلاقيَّة عند علماء الحِلَّة أنَّهم عقدوا مباحث ومطالب للقيم الأخلاقيَّة الإيجابيَّة (الفضائل)، وكذلك عقدوا مباحث ومطالب للقيم الأخلاقيَّة السلبيَّة، وهو ضرب من الثنائيَّات المتضادَّة في البحث العلميّ، من أجل الوصول إلى عقد المقابلات والموازنات بينها.

الخامسة: تبدَّى لنا التحليلُ الباصر والتفسير المعجب للقيم التي تمَّ استعراضها من خطابات علماء الحِلَّة الأخلاقيَّة، وهو أمارة على عقليَّتهم الثاقبة، ورؤيتهم الباصرة في الوقوف على فلسفة هذه القيم الأخلاقيَّة، إن إيجابيَّة، وإن سلبيَّة.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّد وآله الطاهرين.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- إحياء علوم الدين، الغزَّاليّ، أبو حامد (ت٥٠٥هـ)، دار الكتب العربيَّة، بيروت، (د.ت).
- أدب الدنيا والدين، ط١، الماورديّ، عليّ بن محمَّد بن حبيب البصريّ (ت٤٥٠هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٨م.
- أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة، الآمليّ، حيدر بن عليّ بن حيدر، تحقيق: محمَّد خواجوي، ط١، طهران، إيران، ١٣٦٢ش.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيرازيّ، ناصر مكارم، ط١، تصحيح٣، مدرسة الأمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ١٤٢٦هـ.
- الأنا والآخر من منظور قرآنيّ، د. السيِّد عمر، دار الفكر، دمشق البرامكة، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- أنيس النفوس في تراجم آل طاووس، الأردكانيّ، محمود البهبهانيّ الحائريّ، ط١، مطبعة دار الهدى، قم، ١٣٨٢هـ.ش.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار، المجلسيّ، العلَّامة محمَّد باقر (ت١١١١هـ)، تحقيق: محمَّد باقر بهبوديّ، ط٢، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- البحر المحيط، الأندلسيّ، أبو حيَّان بن موسى بن عليّ (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمَّد جميل، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمَّد الطاهر (ت١٩٧٣م)، ط١، الدار التونسيَّة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المصطفوي، الشيخ حسن (ت١٤٢٦هـ)، ط١، مؤسَّسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ الإيرانيّ، ١٤١٦هـ.
- التعريفات، الجرجانيّ، علي بن محمَّد الشريف (ت٨١٦ هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن المرعشيّ، ط٢، دار النفائس للطباعة والنشر، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الرازيّ، فخر الدين، أبو عبد الله محمَّد ابن عمر بن الحسن (ت٦٠٦هـ)، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، الحِلِّيّ، الشيخ ورَّام بن أبي فراس (ت٦٠٥هـ)، تحقيق: باسم محمَّد مال الله، ط١، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٣م.
- التوقيف على مهمَّات التعاريف، عبد الرؤوف، محمَّد بن تاج العارفين المناوي القاهريّ (ت١٠٣١هـ)، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- جامع السعادات، النراقيّ، محمَّد مهدي (ت١٢٠٩هـ)، قدَّم له: العلَّامة الشيخ محمَّد رضا المظفَّر، علَّق عليه: محمَّد كلانتر، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، ١٩٨٨م/ ١٤٠٨هـ.

- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، محمَّد بن أحمد بن أبي بكر (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردونيّ وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- روح المعاني لتفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسيّ (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: عليّ عبد الباري عطيَّة، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٤١٥هـ.
- الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة، الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل بن عماد الجوهريّ (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- عدَّة الداعي ونجاح الساعي، الحِلِّي،أحمد بن فهد (ت٨٤١هـ)، ط١، مؤسَّسة الفكر الإسلاميّ، بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- فتح الباري، العسقلانيّ، أحمد بن عليّ بن حجر(ت٨٥٢هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله، ومحمَّد عبد الباري، ومحب الدين الخطيب، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- في ظلال القرآن، سيِّد قطب، قطب بن إبراهيم الشاذلي (ت١٣٨٦هـ)، دار الشروق للطباعة والنشر، بيروت، ط٣٢، طبعة جديدة تنشر للمرَّة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- القاموس المحيط، الفيروز آباديّ، محمَّد بن يعقوب مجد الدين (ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمَّد نعيم العرقسوسيّ، ط٨، مؤسَّسة الرسالة للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- الكشَّاف، الزمخشريّ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت٥٣٨هـ)، ط٣، دار الكتب العربيَّة، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- كشف المحجَّة لثمرة المهجة، ابن طاووس، رضيّ الدين عليّ بن موسى الحِلِّيّ، (ت٦٦٤هـ)، تحقيق: الشيخ محمَّد حسُّون، ط٣، مؤسَّسة بوستان كتاب، مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ، ١٤٣٠ق/ ١٣٨٨ش.
- الكليَّات، الكفويّ، أبو البقاء أيُّوب بن موسى الحسينيّ (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمَّد المصريّ، ط٢، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمَّد بن مكرم الأفريقي المصريّ (ت٧١١هـ)، أدب الحوزة، قم، إيران، ١٤٠٥هـ.
- مجمع البيان، الطبرسيّ، أبو عليّ الفضل بن الحسن بن الفضل أمين الدين (ت٥٤٨هـ)، ط١، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٥م.
- محاسبة الملائكة الكرام آخر كلِّ يوم من الذنوب والآثام، أو محاسبة النفس، ابن طاووس، رضيّ الدين علي بن موسى الحِلِّيّ (ت٦٦٤هـ)، تحقيق: الشيخ هادي حسن القبيسيّ العامليّ، مجلَّة تراثنا، العددان الأول والثاني، ٤٥ و٤٦، السنة الثانية عشر، محرَّم-جمادي الآخرة، ١٤١٧هـ.
- مختار الصِّحاح، الرازي، أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمَّد، ط٥، المكتبة العصريَّة، الدار النموذجية، لبنان، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- المدارس الأخلاقيَّة في الفكر الإسلاميّ، مجموعة المؤلِّفين، تعريب: عبد الحسن بهبهاني بور، مراجعة وتقويم: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، ط١، بيروت، ٢٠١٢م.
- معجم الفروق اللغويَّة، العسكريّ، أبو هلال (ت٤٠٠هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلاميّ، ط١، قم، إيران، ١٤٣١هـ.
- معجم لغة الفقهاء، الرواسيّ، أ.د. محمَّد رواسي قلعة جي (ت١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م)، ط٣، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الإعلام الإسلاميّ، قم، إيران ١٤٠٤هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهانيّ، أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب (ت٥٠٢هـ)، تحقيق صفوان عدنان داودي، ط٢، طبيعة النور، قم، إيران، ١٤٢٧هـ.
- موسوعة الآداب والأخلاق الإسلاميَّة، الهاشميّ عبد الله، دار السيِّدة رقيَّة، ط٢، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ، السيِّد محمَّد حسين (ت١٤٠٢هـ)، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرِّسين، قم، إيران، (د.ت).